القميص

قصص مصرية



صبرى موسى

صبري موسى



قصص مصرية قصيرة

الطبعة الأولى ـ ١٩٥٨

لكل الناس .. مع حبي

صبري



« ليس هـــذا عرضا نقديا لهـــذه المجموعة .. انما هو قراءة متذوقة لما تضمه من قصص .. مع تعميق لبعض مواقفها »

حمزه الفضل

بسيطة كالنفوس في بلادنا .. شريفة كالكادحين من أجل قوت العيال ..

انها تعكس الحياة في حركتها وهي تتجدد دائمـا ، وتتدفق دائما .. وتمتد بالبقاء الى كل شيء ، حتى الى الشوك ..!

ما أشبه الانسان في هذه الحياة بالحاوى ..

انه يستـعين بالعـرق واللهـاث والحبـال والمسامير والثعابين ، ليصنع لقمة العيش ..

« عيسى نبى ، وموسى نبى ، ومحمد نبى ، وكل من له نبى يصلى عليه .. »

انه ينشـد في الناس دينـا آخر .. دين الانسانية الكبير .. دين المشاركة ، الذى يوحد كل البشر ..

والـكادحون الذين يشـقون ويعرقون ، يعرفون ان الدنيـــا ليست غيبـــا وقدرا .. لقد علمهم الـكدح والدأب ، أن الحياة هي ارادة الانسان ..

انها صراع ، ومهارة ، وذكاء ، وبذل .. و « يخدعك اللى يقولك ، اننا بنتعامل مع الجن والعفاريت .. المسألة خفة يد وشطارة .. » !

ويتجمع الناس ، ليقفوا على هذا النوع من خفة اليـد والشطارة ، الذى لم يمارسـوه ، وينعطفـوا مع هـذا الاخ الانسان ، الذى يقدم من اذلال النفس والجسد في سبيل الرغيف ، فوق ما يقدمون ..

وكلنا نسعى ، ونلهث ، ونحفى •• و « اللى مشافنيش فى اسكندرية شافنى فى بور سعيد ، واللى مشافنيش فى بور سعيد شافنى فى دمياط ، واللى مشافنيش فى دمياط ، شافنى هنا •• بنلف الدنيا عشان لقمة العيش •• »

فالحياة عسيرة ، شاقة ، ولقمة العيش صعبة •• من أجلها يبتلع الحاوى السيوف ، ويتقيد بالحبال « تجمهر »

وتدخل وفاء السرير مع كل من يدفع من الرجال « الساعة » ••

وتصعد بنت المعلم حسين الى غرفة كمال أفندى على السطح « تفاح » ••

وتتأبط الفتاة القطة ، ذراع أول رجل فى الطريق « القميص » ••

ويترك الرجل بلدته وحبيبته ، ويتلطم فى كل البلاد ليجمع ثمن الزواج « فى الغربة » ••

كل هذه المخلوقات الشريفة ، لا تطلب من الحياة أكثر من أن تظل فيها ••

ولكن نوع الحياة الذى يتقلب كالبحر ، يجعل الناس كالسمك •• يأكل الكبير الصغير ••

ولكن الكادحين بالرغم من كل شىء ، يجاهدون ويأملون •• ويمددون خيوط التعاطف والحب والاخاء ••

تجعلهم الحياة حواة ، ومومسات ، ولصوصا •• ولكنها لاتستطيع أن توقف في نفوسهم نمو الخير

حمدى ابن الخفير لم يكن يملك المصاريف ليدخل المدرسة •• ولم يكن يملك ثمن الصعود الى السرير مع وفاء •• بينما أصدقاؤه وبلدياته الاثرياء ، منتظمون فى الدراسة •• متمتعون بوفاء ، وبكل شىء •• فتنعطف

معه الفتاة ، وتأبى الا أن تقاوم هـذا الظلم بنفسها ٠٠ وتعدل وجه الحياة على طريقتها ٠٠ فتسرق ساعة أحدهم ليدفع حمدى المصاريف ٠٠ وتملكه نفسـها بالحب ٠٠ لا بالاجر « الساعة » ٠

والمعلم حمودة صاحب محل العصير ، يعرض خبرته فى الشراء على المعلم شعلوق خصمه فى المهنة ، ومنافسه فى الرزق ٠٠ لأن ٠٠ « الناس لبعضـــها ٠٠ والزعل مابيدومش ٠٠ واحنا جـيران ياخويا ٠٠ ومتأخذنيش برضه ، شغلانه زى دى جديدة عليك ٠ « السكلان »

وكمال افنـدى الموظف الصـغير ، والجدع العـازب الساكن على السطوح،لم يكن يستغل بنت المعلم حسين، ولم يكن يطمع فيها وهى تصعد الى غرفته كل يوم ٠ ٠ بل كان يقدم لها ما كان أبوها الفقير يعجز عن احضاره بقروشه الضئيلة ٠٠ « تفاح » ٠

كل هذه المخلوقات بالرغم من قسوة ظروفها ، وعتمة أيامها ، لاتستطيع الا أن تتعامل بقلوبها ، وبكل الشرف والخـير والمحبـة ٠٠ لانستطيـع الا أن تؤكد وجـودها وتتمسك بحقوقها فى الحياة والكرامة والمساواة ٠٠

محمود العامل الصغير كان يتمسك بحقـه كمواطن شريف مكافح ، وهو يهم بخنق صديقه ٠٠ لانه كانوهو يمزح ، يجرده من بطولته ٠٠ من مصريتـه ٠٠ وينكر عليه شرف الدفاع عن بلده وقت الاعتداء ٠٠

« قلت له ألف مرة أنا مهربتش ٠٠ وهو عارف كده كويس ٠٠ كنا بنضرب سوا ٠٠ كلنا ٠٠ وبعدين الواد أنور قالى الحق بيتكم انضرب يامحمود ٠٠

أمى متكسحة ٠٠ يعنى أسيبها تموت لوحديها ٠٠ »

ويمضى الاتوبيس بهؤلاء العمال الصـغار والابطـال الكبار ٠٠ فى وقت كانت فيه هذه الاحاديثشيئا عاديا،

فى كل مكان من أرض مصر .. فى الاتوبيسات والقطارات والشوارع والحوارى والدكاكين ..

فى كل ركن كان المصريون يرددون آيات البطولة والفداء .. « كنا بنضحك »

وفتاة الطريق تأبطت ذراع أول رجل مر بها فى الظلام .. ولكنها أبت أن تخلع أمامه ثيابها حين انغلق عليهما الباب .. فقد كان قميصها الداخلى متسخا ، مهترئا ، كله ثقوب ..

كانت تتمسك بحقها فى أن تبدو أمامه أنثى عزيزة .. أنثى تمارس احساسها المفقود بالكرامة والمساواة .. أرادت أن تظهر أمامه لائقة .. مثل زوجة .. لقد تشابهت هذه الليلة مع كل أحلامها .. فقد ضمها بيت صغير .. ورجل عطوف .. « القميص »

ففى أحلام البسطاء ، وأفكار الكادحين ، وتطلع المعذبين .. ترتسم الحياة كما يجب أن تكون .. « الانسان »

وحين تهون التضحيات .. وتبزغ الكلمة الطيبة .. يتأكد الأمل .. ويتضح الطريق .. وتنجذب الى النور كل الخيوط المعقدة التى تصنع شقاء الملايين ..

والكلمة الطيبة .. تنمو دائما .. وتصبح مع الايام، فكرة .. وحركة .. ثم قوة .. وانتصار .

بدر نشأت

القميص

التقيت بها فى ليلة كنت فيها سأمان، والملل يدب فى داخلى دبيبا له وخز ..

كانت مقبلة نحوى، فنظرت إليها ويداى فى جيوبى بلا عناية .. فمضت تحدق فى وجهى بفضول ..

كانت صغيرة .. وجهها ملىء بالمساحيق .. وقفت أمامها ولم أقل شيئا .. لكن عيناى قالتا لها كل ما يمكن أن يقال ..

مهنتها أن تقرأ عيون الناس .. فلم يأخذ الأمر منها وقتا طويلا للتفكير .. علقت ذراعها بذراعى، وسارت إلى جوارى وهى تبتسم ..

كنا فى آخر الليل .. والدنيا برد .. والعربات تمرق على الشارع العريض فى فحيح .

وقد ظللت طوال الوقت صامتا .. كان يحتوى مشاعرى ذلك الاحساس بالمسئولية المبهمة ، الذى يراودنى كلما اصطحبت امرأة إلى البيت ..

وخلال الطريق قالت لى اسمها وعمرها .. ورأيها فى كل الرجال .

كانت تتكلم فى صراحة .. وببساطة .. دون التواء أو خبث ، وقد شاعت فى ملامحها طيبة غير معهودة ..

لما وصلنا فتحت لها الباب وأشرت إليها بالدخول فى صمت أيضا .
لم تكن لدى قابليه للكلام على الاطلاق ..

وفى الحقيقة .. لقد ظللت طوال الوقت أفكر :

ـــ لماذا وقفت فى طريقها ؟ .. لماذا أتيت بها معى ؟ .. أترانى رغبته



أن أدفن فى صدرها أحزانى ؟ ..

حين أضأت النور ، أخذت نفسا طويلا وهى تتنهد فى خلاص ..
كان الشعور بالطريق يعذبها . . وفى البيت ينبسط اطمئنانها . .

ارتمت على مقعد بالصالة ، وراحت تتأمل الصور المشدودة فى الحيطان
صور ملونة رسمتها أيام أن كان القلب صبياً . .

غمغمت فجأة وهى تلتفت إلى ، محاولة أن تخنق الصمت قبل أن يتمدد :

— انت اللى راسم الصور دى ؟
— أيوه . . تعجبك ؟ ..

— آه . . حلوين قوى. أصل أنا باحب الرسامين .. ودايما أروح
لهم عشان يرسمونى . . دول طيبين قوى .
وقد أجبتها بابتسامة بلهاء وأنا أهم بخلع ملابسى ، فبان على وجهها
الضيق ، وارتسم فى تقاطيعها إكتئاب مؤلم جعلنى أشعر بالتعاسة .

وقفت فجأة وهى تسأل :
— فيه هنا أكل . . أنا جعانه . .

كان السؤال ينحدر من فمها جائعا . . وهى تقف فى حيرة طفلة فى
الثامنة عشرة . . !
اهتز قلبى وغمغمت :
— ما افتكرش فيه . . لكن أنزل أجيبلك . .

كنت قد خلعت القميص والحذاء . . وبقيت بالبنطلون . فقالت :
— لأ . . خليك أنت وأنا أنزل أجيب ..
أعطيتها نقوداً وأضأت لها نور السلم وأحسست براحة وأنا أغلق
الباب وراءها . .

تمددت على فراشي وأنا أشعر بالخلاص. وتمنيت أن تذهب بالنقود ولا تعود . . لكنها عادت . .

طرقت الباب ففتحت لها . .

كانت تضم إلى صدرها عدة لفافات..وقد انفرجت شفتاها الرقيقتان عن بسمة سعيدة .

أخذت تمد الطعام على المائدة الصغيرة . . وتملأ أكواب الماء .. وكان من الواضح أنها مبتهجة بما تعمله . وأن الشعور بالبيت يملأ نفسها بالطهر . .

فكت حزامها . وفتحت أزرار فستانها الضيق . . فبانت رقبتها وجزء من صدرها . . ثم جلست إلى الطعام ..

وجلست أمامها أرقبها ..

كانت تأكل فى بساطة .. وصدرها يبدو من فتحة الفستان بلا حرج والبسمة الصافية تضىء وجهها. .فبدا لى أن الذى يملأ صدرى وهم .. وأن حزنى فقاعة كبيرة سوف تنفجر لو لامست هذا الصدر ..

* * *

عدت إلى فراشي ..

جاءت وجلست إلى جوارى فى صمت ..

مددت يدى لأمسك بيدها ، فسحبتها من يدى فى تدلل .. وهى تغمغم :

ـــ يظهر أنا مش عجباك ..!

قالت ذلك وهى تغرس عينيها القلقتين فى عينى .

قلت لها وقد أحرجتنى ملاحظتها :

ـــ أبداً .. مين قال كده .. انت قمورة وظريفه .. بس أنا بافكر فى حاجات تانيه شغلانى .

ـــ لا . . انت مش عايزنى . لو كنت عايزنى ماكنتش تخلينى أنزل أشترى الحاجة .

ـــ ياشيخه متبقيش عبيطة . مش انت اللى قلتى .

ـــ لا . . برضه . .

كان من الواضح أنه ليس لدينا ما يمكن أن يقال .. فمددت يدى وجذبتها إلى جوارى ، فتكورت فى حضنى مثل قطة دافئة . . ولفت ذراعيها حول عنقى .. ودست فمها الرقيق فى فمى ، وأغمضت عينيها .

* * *

فى تلك الليلة طلبت من الأنثى الصغيرة أن تخلع ملابسها .. كل ملابسها لكنها رفضت . .

كانت قد تلاشت فى صدرى بكل حرارتها .

وعندما طلبت منها أن تخلع ملابسها بغتت ..

نظرت فى عينى بحيرة وتردد وهى تغمغم :

ـــ مش ضرورى . . كده كويس . .

لكننى عدت ألح .. فأصرت على الرفض ..

قالت لى :

ـــ علشان خاطرى بلاش ..

ولكن رفضها زادنى تشبثا برغبتى .. وحين بدا لها أن ذلك يضايقنى قالت فى همس :

ـــ طب أخرج بره وأنا أقلع ..

وخرجت وأنا أبتسم فى استغراب . . بعد لحظة ستكون كلها حقيقة بين يدى .. ما الفرق فى أن أرفع أنا عن الحقيقة أغلفتها .. أو ترفعها هى ؟

ومن الداخل جاء فى نداؤها خافتا كواء ضعيف .. فدخلت .. كانت ملابسها مطوية بعناية وقد دستها تحت الوسادة .. لكن طرفها كان ظاهراً وقد انسحب الغطاء على صدرها وهى ممدة فى الفراش ..

قلت لها :

ــ أطفيلك النور . .

ــ زى ما يعجبك .. !

أطفأت النور وأنا ما أزال أفكر .. لماذا لم تخلع ملابسها أمامى؟

* * *

ذبلت الرغبة فتمددت فى سكون .. وأخذت أحدق فى السقف .

عندما أشترى الحب تمتلىء بالكآبة نفسى ..

أدرت وجهى وابتسمت للأنثى الصغيرة فى ود ! .

كانت راقدة إلى جوارى صامتة .. عيناها الواسعتان مفتوحتان فى امتداد .. وفمها مطبق ..

كنت أبحث عن كلمات أقول لها بها .. أننى أعطيتها ليلة كئيبة .. لأننى إنسان مهموم .. وعمل الحب عندى معقد وغير ناجح ، لأننى لم أعرفها من قبل .. وقد لا أعرفها من بعد ..

لكننى كنت متأكداً من أنها لن تفهم ما أعنيه .

وضعت يدها الصغيرة على رأسى وتخللت شعرى بأصابعها وهى تسأل:

ــ دايما تفكر كده .. بتفكر فى إيه ؟

ضممتها إلى صدرى وأنا أغمغم :

ــ ولا حاجة .. إنت بتصحى الساعة كام ؟

— إنت بتصحى كام ، أنا مش مهم .. أقدر أقوم فى أى وقت

— لا أنا باصحى متأخر .. حوالى تسعه كده .

— طيب .. حا أبقى أصحيك .. تحب تنام دلوقت .

— يمكن أنام .. تصبحى على خير ..

* * *

أغمضت عينى .. لكننى ظللت أفكر .. وظل الليل ينسحب وأنا ما أزال مؤرقا .. كنت ممدداً بجوارها .. ساكنا .. لكن أفكارى بقيت صاحية ..

كان يؤلمنى أن الأنثى الصغيرة حاولت أن تمتعنى .. وكانت مخلصة .. وقد قالت لى فى مودة :

— إنت طيب قوى !!

ومن خلال كلماتها البسيطة وضح لى كل ما تلاقيه من عذاب . .

وقد أحسست بها تقوم من جوارى فى تسلل حينما خيل لها أنى نمت شعرت بها تشعل نور الصالة وهى تتجه إلى الحمام . .

أخذتنى خواطرى فترة طويلة . . وعندما أفقت كان نور الصالة ما يزال مضاء . . ولم تكن هى قد عادت إلى جوارى بعد . .

وقد تساءلت طويلا عما تفعله فى الحمام . . ثم غلبنى الإعياء فنمت.

حـــين أنام . . أترك نافذتى مفتوحة . . النور يدخل فى الصباح فيوقظنى . .

دخل النور فى سريرى فصحوت . . كانت الأنثى الغريبة تتنفس إلى جوارى فى هدوء . . تركتها وذهبت إلى الحمام . .

فى وسط الحمام وجدت قميصها الداخلى .

كان مغسولا .. ومنشورا على مقعد خشبى تعودت أن أهمله فى الحمام

وكان القميص ممزقا .. سدت خروقه قطع مختلفة من القماش ..

وقفت أحدق فى وجوم وإجابة أسئلة الأمس تطرق رأسى ..

أدركت فجأة ، لماذا لم تخلع ملابسها أمامى . .

ثم استدرت بسرعة .. وعدت إلى الفراش .. وانحنيت على الفتاة وأخذت أغرس عيونى فى ملامحها وأنا مبهور . .

رفت أهدابها برهة .. ثم فتحت عينيها وتطلعت فى وجهى وهى تبتسم فى دهشة . .

ــ إيه إللى صحاك بدرى كده .. ؟

ــ صباح النور ياقطه ..

قبلتها وأنا أغمغم :

ــ أنا زعلان منك .. حانزل دلوقت أجيب حاجة من تحت .. اوعى تنزلى لحد ما آجى . . وبعدين حاأقولك أنا زعلان من إيه ..

ارتديت ملابسى والقطة فى فراشى تتأملنى بفضول ..

لوحت لها بيدى وأنا أهم بمغادرة البيت :

ــ متنزليش ياقطه لحد ما آجى .. مش حا أغيب

وأغلقت الباب ورائى ..

لاحظت أن مشاعرى تتفتح وأنا أقول للأنثى الغريبة . ياقطة .

وقد امتلأ قلبي بالراحة وأنا أشرب البساطة من وجهها . .

فى الطريق أحسست باللهفة لأن أعود سريعاً . . وقد دلفت إلى محل يبيع الملابس . .

قلت للرجل :

ــ عاوز هدوم داخلية . .

ــ مقاس كام ؟ . .

أشرت للفتاة التى تجلس على الكيس وأنا أغمغم :

ــ مقاس القموره دى تقريبا . .

نظر إلى الرجل وهو يبتسم .. ثم وضع أمامى مجموعة من العلب لأختـــار ..

ووجدتنى أنتقى بدقة .. وبرغبة .. وقد راودنى ذلك الشعور بالسعادة الذى يمارسه الرجل حينما يختار لامرأة يحبها . .

حملت لفافة الملابس وعدت إلى البيت . .

فتحت الباب فواجهنى الصمت . . كانت القطة قد غادرت البيت . .

* * *

من يومها ولفافة الملابس الداخلية فى زاوية من دولابى .. أراها دائما .. وأذكر القطة .. وأغمغم فى أسى :

ــ إخص عليك ياقطه .. أنا زعــــلان منك ..

لـكن القطة لا تعود ..



خلع الرجل ملابسه ثم وقف عارياً ..

لم يكن يغطيه سوى سروال باهت قد أحاط بنصفه الأسفل .. وكانت زوجته الصغيرة الشاحبة تفرغ على الأرض محتويات صندوق خشبي متسخ . أشياء غريبة عديدة ومتنافرة .. أسياخ من الحديد ، وقطع من القماش الملون ، وزجاجة بها جاز ، وعدد من الأكواب النحاسية ، وبضع قطع من الفلين ، ولفة من الحبال .. وأطواق معدنية لامعة .. وخمسة كتاكيت صفراء صغيرة .. ومسامير .. وثعبان رفيع . !

كان الوقت منتصف الشتاء .. وكان يشيع فى الجو .. خدر لذيذ من ذلك النوع الذى يجعلنا نحس فجأة ، بأن لامتاعب لدينا .. وأن السماء راضية عنا أتم الرضا .. !

وصفق الرجل بيديه ، ثم نفخ فيهما ، وراح يدلك بكفيه الكبيرتين عضلات جسده النحيلة المشدودة ثم انتصب فى وقفته انتصابة شديدة ، وانحنى إلى الأمام قليلا ، ثم وقف .. كانت بطنه قد اختفت .. ابتلعها داخل جسده ، مخلفا مكانها فجوة كبيرة تتسع لغلام صغير .. !

ونظر الرجل من أسفل عينيه إلى الجمع الدائر ، وكأنما أرضاه عددهم الكبير ، فقد لمعت بسمة خافتة على وجهه ، ثم دار حول نفسه . وانحنى على الأرض . وتناول كتكوتاً بين أصابعه .. وبأصابعه الأخرى ، أخرج



من مؤخرة الكتكوت بيضة .. ثم ألقى بالكتكوت بعيداً ، وأخرج من البيضة كتكوتا .. ثم ألقى بالبيضة .. وأخرج من مؤخرة الكتكوت الجديد بيضة ثانية .. !

فعل ذلك فى سرعة ، بين دهشة الناس فى الحلقة ، ونظرات زوجتنا النحيلة الواقفة خلفه ترمقه فى ود .. وألقى الرجل بالكتكوت والبيضة جانباً وراح ينظر إلى الناس ، ليرى أثر معجزاته الصغيرة فى وجوههم

☆ ☆ ☆

ومن بعيد .. نظر عسكرى ناحية الجمع فى فضول . ثم جذب زميله من كمه ، واتجها بسرعة إلى هناك ..

كان الرجل فى تلك اللحظة ، يخرج ثعبانا رفيعا ، من صدر فتاة سمينة ، واقفة تتفرج وسط الجمع ، وقد ارتسم على وجهها ذعر مميت ..

ووقف الرجل مواجها الناس ، ودار حول نفسه ليراه كل من فى الحلقة ، ثم طلب من أحدهم خاتماً ذهبياً وطوح به بعيداً .. حيث اختفى فى الفضاء .. !

وصاح صاحب الخاتم فى غيظ ، لكن الحاوى مد يده فى سرعة ، وأخرج الخاتم من أنف الرجل ذى البدلة الخضراء المكوية . .
ثم تناول بين يديه قطعة مربعة كبيرة من قماش متعدد الألوان ، وطواها بحركة اسطوانية ، ووضعها فى فمه .. وأخذ يلوكها فترة .. ويمضغها بأسنانه .. وبطرف أصابعه ، أمسك بطرفها ، وجذبها إلى الخارج . .
شريطاً طويلا .. متعدد الألوان ..

وخلال الأفواه الفاغرة من الدهشة .. ألقى الرجل بالشريط الطويل جانباً فى إهمال كمن ينكر أنه فعل شيئاً ذا بال .. بالرغم من أنه قد قضى ثلث ساعة ، يجذبه من فمه إلى الخارج .. !

وصفق الرجل ، ثم عوى .. والتقط الناس أنفاسهم المبهورة وهم يرقبونه وهو يبتلع سيفاً من الحديد ..

كان السيف غائصاً فى حلقه حتى المقبض .. وقد انفرجت شفتا الرجل فأصبح فمه شديد الشبه بفتحة قربة الماء ..

أدار عيناه فى الجمع لحظة .. كانت نظراته جاحظة .. ثم مد يده وأخرج السيف من حلقه ، ووقف معتدلا فى مواجهة الناس .. وظل فترة يحدق فى العيون المشدوهة .. والسيف المصقول فى يده ، يضرب به حينا على صدره .. وحينا آخر يحمله على كتفه .. ثم صاح فى ثقة :

« عيسى نبى .. موسى نبى .. محمد نبى .. كل اللى له نبى ، يصلى عليه كان صلوا عليه .. لاسحر ولاشعوذة .. خفة يد وشطارة .. يخدعك اللى يقولك أننا بنتعامل مع الجن والعفاريت .. المسألة خفة يد وشطارة واللى مشافنيش فى اسكندرية شافنى فى بورسعيد .. واللى مشافنيش فى بورسعيد ، شافنى فى دمياط .. واللى ما شافنيش فى دمياط ، شافنى هنا . بنلف الدنيا عشان لقمة العيش .. »

وصمت الرجل .. أخذ يبتلع ريقه فيتحشرج فى حلقه الجاف ، ثم وضع السيف جانباً ، وتناول لفة الحبال الغليظة . ثم وقف مواجها الناس من جديد :

« دلوقت عاوز عشرة فتوات رجاله .. يربطونى بالحبال .. كتاف حديد .. بإذن الواحد الأحد ، لازم أخرج منه قدام الناس الكرام دول » :

وحدث هرج دام فترة .. وعلا صوت الهمس .. وغمغم الناس وراحوا يبحثون حولهم . عن عشرة من الفتوات ..

وخرج من بين الجمع عشرة رجال أقوياء أحاطوا بالرجل فى تحد ظاهر ، كأنما بينهم وبينه ثأر قديم ..

وتناولوا منه الحبال القاسية الألياف ، وأداروها فيما بينهم حول جسده .. ولم تمض برهة ، حتى انتهوا من ربطه بإحكام ..

وانتصب الرجل بحباله ، وأخذ ينظر إلى الناس فى ضراعة وهو يهتف فى تحشرج .

« كلمة راجل شريف .. مش حتتحركوا من هنا قبل ماأفك نفسى . يإذن الواحد القهار .. تنفك الحبال وتنهار .. مساعدة للراجل الضعيف أحسن من المال الحرام .. واللى له نبى يصلى عليه .. كان صلوا عليه ..

ودلوقت قبل ما أفك نفسى ، عاوز أشوف شهامة الرجال .. اللى يحب النبى بتاعه يحط إيده على صدره . ويمدها فى جيبه .. ويطلع اللى فيه النصيب .. والندل يتفرج بلاش .. والأرزاق على الله .. »

وأومأ الرجل النحيل العارى المقيـــد ، إلى زوجته فتقالت بين الصفوف ، وبيدهـا وعاء من الجلد ، راحت تدفع به تحت أنف كل واحد . ليخرج لها اللى فيه النصيب ..

وأفاق النـاس من الدهشة المبهورة . ونظر العسكريان حولهما فى سرعة .. كانا قد نسيا نفسيهما ، فتحركا فى ارتباك .. وبلا إدراك ، مضيا يدفعان الناس نحو الطريق وهما يصيحان فى حزم :

— إمشى يا جدع انت وياه بلاش تجمهر وأ ور نصب ..

* * *

بعد قليل .. كان الميدان الصغير قد خلا من زحام الخلق .. وكانت المرأة واقفة تنظر إلى الوعاء الفارغ فى ذهول . وكان زوجها يحاول جاهدا التخلص من قيوده .وقد لمعت على جسده الأصفر العارى حبات العرق .

وكان بعض الأطفال قد وقفوا خلف الأشجار . يدفعون برؤوسهم الصغيرة من بعيد ، ليرمقوا الرجل وهو يحـــاول الخروج فى صعوبة من الحبال . ويصرخ فى زوجته كى تساعده ..

وفى الجو .. كان ما يزال يشيع ذلك الخدر اللذيذ ، الذى يجعلنا نحس فجأة ، بأن لا متاعب لدينا .. وأن السماء راضية عنا أتم الرضا !!



فى أول عملى بالحكومة ، اشتغلت مدرسا للرسم ، بمدرسة تابعة للتعليم الحر فى قرية تبعد ثلاثين قرشا عن المدينة ..

كانت المدرسة بناء فضفاضا ، تحيط به حديقة جافة الأشجار ، فى آخرها مكنة للطحين .. وأمام المدرسة كانت تمر الترعة التى تشق القرية نصفين .

كنا فى الصباح ، من أيام الشتاء المشمسة ، نجلس نحن المدرسين أمام المدرسة نرقب الشمس وهى تغمس سلوكها الذهبية فى مياه الترعة الخضراء ، ونتابع القرويات وهن يجررن أذيالهن خلفهن على الأرض ، خلال التراب وقش الأرز ، وروث الحيوانات .. بينما جرارهن تتأرجح على رؤسهن فى حركة رتيبة منتظمة حتى تغيبهن حوداية أبو عبد الله . حيث تقع طلمبة المياه .

وعندما كانت السماء تمطر فى ليلة، كانت طرقات القرية الضيقة ، تتحول فى سرعة إلى ترع من الوحل ، يستحيل عبورها أو السير فيها على من كان مثلنا من الأفندية .

وكان ناظر المدرسة يعتبر نفسه مسئولا عن سلامة وصولنا إلى المدرسة عندما تمطر السماء .. فكان يرسل لنا عربة كارو يجرها حمار متوسط العمر نقتعد الحصيرة المفروشة على سطحها ، وتمضى تتهادى بنا خلال طرقات



القرية الموحلة . ونحن المدرسون فوقها . يهب كل من يرانا من القرويين واقفا فى سرعة . ويلصق كفه الأيمن بين أذنه وعينه فى تحية ساذجة . والعربة تخوض فى الوحل وأطفال الفلاحين يخوضون وراءها ليتفرجوا على الأفندية .

وكان الموكب يتعثر . ويقف فى بعض الأحيان . عندما يحلو للحمار الشاب أن يقف عند أول سوق القرية والناس فى ازدحام .. ليبول خلال الطين والناس ، دون مراعاة لشعور الأساتذة الذين فوق العربة . وبلا اعتبار للجرس الذى يكون قد ضرب منذ ساعة .. والحصص التى تكون قد بدأت منذ ضرب الجرس !

وفى أول الأمر كانت هذه الأشياء كلها غريبة على ، وكنت أرقبها فى دهشة .. وأعجب لزملائى . كيف لا يبدون أمامها دهشة مثل دهشتى . . لكننى عرفت أنهم لكثرة ما مرت بهم مثل تلك الصور . رسخت فى أذهانهم . واختلطت بأحداث حياتهم . للدرجة التى لم يعد لوقوعها أمامهم أى تأثير غير عادى . . تماما . مثل الأكل والشرب والنوم ودخان المعسل فى قهوة درويش الغمراوى . التى تغلق أبوابها فى الساعة الثامنة مساء . !

٭ ٭ ٭

بعد أجازة نصف السنة على وجه التقريب . . شعر ناظر المدرسة بكفاءتى . . فأضاف إلى جدولى سنة رابعة لأدرس لها الرسم والأشغال ..

وحقيقة أن نشوة خفية سرت فى أعطافى حين علمت بقراره . لكن الأمر لم يخل من بعض التوجس . . فإننى كنت قد اعتدت على الأولاد فى سنة أولى وثانية وثالثة .. واستطعت فى هذه الفصول الثلاثة

السيطرة على رغبة التلاميذ فى إثارة الشغب والتهريج . . لكن سنة رابعة كان يختلف أولادها حجما ، وأخلاقا ، عن الآخرين . . .

وقد دخلت سنة رابعة للمرة الأولى وأنا مضطرب قليلا .. وأخذت أجيل بصرى فى الوجوه الصغيرة التى وقفت تحملق فى وجهى وعيونها تبتسم فى خبث ..

وفى الحقيقة ، أن الأولاد قد استقبلونى أول الأمر بروح طيبة ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى معاملتى لهم منذ البداية ..

ولكن .. لم ينقض أسبوع واحد ، حتى وقعت الواقعة ..

كان فى الفصل تلميذ غائب من قبل أن أبدأ التدريس فيه .. ثم حضر هذا التلميذ ..

كان مقعده بجوار النافذة فى آخر الفصل ، وكان الولد طويلا عريضا مفرطح الملامح تبدو على وجهه علائم الغباء الشديد ، بينما كانت ملابسه تدل على مكانة أهله فى القرية .

ومنذ اليوم الأول لحضوره ، وبعد أن دخلت الفصل بخمس دقائق لم ينقطع هذا الولد عن طلب الذهاب إلى دورة المياه .

كان يرفع أصبعه ويصيح بصوته المتسلخ :

ــ أفندى . . أفندى . . أروح أتفسح !

وكنت أتركه يروح ليتفسح ، لكنه ما يكاد يعود ، وتمضى على عودته بضع دقائق ، حتى يعاود رفع أصبعه ليطلب الخروج من جديد

وقد عجبت فعلا لكثرة ذهابه إلى دورة المياه ، ولكننى ساعتها

رجحت أنه من الجائز أن يكون مريضا ، فتركته ومضيت فى التدريس للأولاد . . .

وحدث أن نظرت ناحيته لجأة وأنا أدور ببصرى فى أنحاء الفصل ، فوجدته فى جلسته بجوار النافذة . يصوب نبلة إلى شجرة تطل على الفصل من الحديقة .. !

وذهلت . وصرخت فيه بأقوى ما فى من صوت :

ـ أقف ياولد يااللى فى الآخر .. ايوه إنت ..

وبوغت الولد لحاول بارتباك أن يخفى النبلة فى ملابسه .. وارتسم على سحنته بكاء كئيب وهو يجيبنى فى توسل .

ـ موش أنا والنبي يافندى . . .

لكننى صرخت فيه بغيظ :

ـ اسمك أيه . . ؟

ـ موش أنا والنبى يافندى . . !

ـ ياولد اسمك إيه بقولك . . . ؟

ـ زكى . . .

ـ زكى إيه .. ؟

ـ والله العظيم ماهو أنا يا فندى .. !

ـ أنطق ياولد . . . زكى ايه ؟

ـ زكى محمد . . .

ـ محمد ايه . . . انطق يابنى . .

ـ زكى محمد يافندى ..

ـــ زكى محمد ايه .. قول الله يخرب بيتك ..

ـــ زكى محمد بيض ؟!

ـــ بيض .. !!

ـــ موش انا والله .. دا جدى هو اللى اسمه بيض !

وضج التلاميذ فى الفصل بالضحك ، وصرخت فيهم من أعماق رأسى أطلب الصمت

واتجهت نحو الولد أحاول أخذ النبله منه ، فوضعها فى الدرج وجلس عليه ليمنعنى من فتحه ..

وساعتها كان الغيظ قد فاض بى ، وبكل ما فى ذراعى من قوة ، صفعته على وجهه ، ونحيته عن الدرج وفتحته ، ووجدت بداخله النبلة ، وبضعـــة عصافير جريحة ، بعـدد المرات التى كان الملعون يخرج فيها ليتفسح ..

وقد ظللت يومها أضرب الولد وقتا طويلا ، وعلى وجهه يرتسم ذلك البكاء البليد الكئيب ، دون أن تسقط من عينه دمعة واحدة ، أو حتى يقول آه ، بل كان يردد باستمرار :

ـــ موش أنا والنبى يافندى ، دا جدى هو اللى اسمه بيض !!

* * *

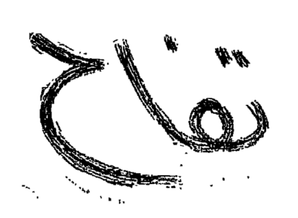
وفى اليوم التالى لم يحضر الولد إلى المدرسة ، واستدعانى الناظر إلى حجرته ، ثم أخبرنى أن العمدة غاضب منى جدا ، وشيخ البلد حاقد على وأخو شيخ البلد الذى هو أبو هـذا الولد ، يتمنى أن يرانى ليفرغ فى

صدرى رصاص بندقيته ، والسبب أن الولد قال لهم انى ضربته ، لأن جده اسمه بيض .. !

ولم تفلح أبدا كل محاولاتى لإقناع الناظر وأهل الولد ، بأنه كان يصيد العصافير فى الفصل ، بل ظلوا جميعا على إصرارهم بأنى ضربته .. لأن اسم جده بيض .. !

وقد قال لى الناظر يومها فى ضيق :

ــ وانت مالك يا أخى ... إسمه بيض ... إسمه كرنب ... ما تعلمه الرسم وبس ... هو إنت حتناسبه . ؟ !



المعلم حسين .. خدعوه .. ضحكوا عليه .. خنقوه من الغيظ .. وبطوا شرفه بشيء اسمه التفاح !

والمعلم حسين يكاد يجن ..

وهو يضرب رأسه فى حائط البيت ويصرخ فى ألم :

— ياعالم .. ياهوه .. بس قولولى أعمل إيه .. ؟

والحكاية أن المعلم حسين له بنت فى الثالثة عشرة من عمرها .. وهذه البنت لم يستطع أن يرسلها إلى المدرسة ، لأن موارده لم تمكنه من أن يشترى لها حاجة التلميذات .. ؟

ولذلك .. فالبنت تبقى بالبيت طول النهار ، تطبخ مع أمها ، وتغسل الهدوم ، وتدعك النحاس ، وتمسح أرض البيت .. ثم يبقى بعد ذلك من النهار ثلاثة أرباعه . فتصعد إلى السطح ..

ولما تصعد البنت إلى السطح ، فإنها لا تنزل منه إلا بعد المغرب ، حين يعود أبوها للعشاء . !

* * *

والمعلم حسين . لم يكن يعلم شيئاً منذ البداية .. لكن زوجته قالت له فى ذات ليلة وهو ينام :



ـ بتتك يا معلم بتقعد طول النهـار فى السطح وانت غايب . .
والسطح ساكن فيه الجدع العازب زى ما أنت عارف .. !؟
وليلتها لم يستطع المعلم حسين أن ينام ..
لكنه فى الصبح ، لما غادر فراشه .. كانت البنت نائمة فى براءة . .
وأهدابها تلقى ظلالا ملائكية على ورود خديها التى توشك أن تتفتح ..
فكظم غيظه ، وخرج إلى شغله وهو يستعيذ بالله من الشيطان ..
ولما عاد المعلم فى الظهر على غير عادته ، لم تكن البنت فى البيت . .
فصعد توا إلى السطح .. وفى غرفة كمال أفنـدى ، الموظف بمصلحة الأملاك الأميرية ،كانت البنت جالسة على السرير ،وكمال أفندى إلى جوارها بجلبابه الأبيض السكروته .. وكانا يأكلان معا ، قطعا من التفاح ..
وساعتهـا لم يستطع المعلم حسين أن يدرك ما يفعله .. فقد هجم على البنت الصغيرة فى هدير صاخب ، وجذبها من شعرها ، ثم قفز بها خارج الغرفة .. وظل يدحرجها بأقدامه على السلم ، حتى هبط بهـا إلى مسكنه ..
وفى المنزل ، ظل المعلم حسين يلطم خديه ، ويشد شعر رأسه .
ويضرب بكفه على صدره وهو يصرخ فى عويل مرير متقطع ، والدموع تتفجر من عينيه :
ـ ياعالم .. ياهوه .. طول عمرى باعمل اللى يرضى ربنا . . عمرى ماعصيته .. وعلى آخر الزمن أتفضح بالشكل ده . ؟
بنت مفعوصة زى دى تسمع على الناس ؟ ! ..

٭ ٭ ٭

والمعلم حسين لم يكن يرغب أبداً فى أن يسمع الناس بماحدث له . .
وقد أراد فى البدايه أن يجد حلا للشكلة ، بينه وبين كمال أفندى . .

فصعد إليه فى غرفته ذات ليـــلة بعد أن تعشى ، وأخذ يناقشه فى الموضوع ...

ويبدو أن المعلم حسين قد احتد وهو يعرض وجهة نظره فى حرصه على البنت . . فقد ثار كمال أفندى لكرامته وقال للمعلم وهو يقف إيذانا بانتهاء المقابلة :

ـــ يا معلم حسين أنا عملت اللى على . . اعرف انت شغلك مع بنتك أنا ما أقدرش أقفل بابى فى وش حد ..

* * *

وقد نزل المعلم حسين ليلتها من عنده والعـــذاب يمزقه . . وانفرد بالبنت وقتاً طويلاً قبل أن ينام . . وأخذ يحدثها عن الشرف، والكرامة وكلام الناس ..

ولكن البنت كانت صغيرة . وفى عينيها نعاس كثير . . وخوف غامض دون فهم . . !

وقد نامت البنت باكية . . لكن المعلم حسين لم يستطع أن ينام .

* * *

وبعد أسبوع . . لما عرف المعلم أن البنت ما تزال تطلع السطح .. ربطها فى عامود السرير عارية . . ومزق جسدها الصغير بالحزام ، ثم تركها تتلوى وذهب إلى الشغل . .

لكنه فى الليلة التالية . . وهو ينام . . قالت له زوجته .وهى تنقل جسدها على الفراش من جنب إلى جنب :

ـــ يا معلم حسين البنت لسه بتطلع السطح . .

وفى تلك الليلة استيقظ كل الجيران على صراخ مروع فى بيت المعلم

حسين . .واقتحموا البيت لينقذوا البنت من بين أصابع أبيها المغروسة في رقبتها ، وهى بين الحياة والموت ..

وصرخ المعلم حسين فى زئير ممزق متهدج :

ـــ ياناس . . شرفى .. كرامتى . . خمسين سنة ، محدش سمع على حاجه .. وتيجى بت مفعوصة زى دى تخسر سمعتى فى وسط الناس . ؟ قولولى بس أعمل ايه .. ؟

وقال له الناس الطيبون :

ـــ روح اعمل لابن الحرام ده ، محضر فى البـــوليس .

* * *

ونام المعلم حسين ليلتها .. والأمل فى محضر البوليس ، يداعبه بالخلاص من المشكلة .

ولما طلع النهار ، قدم بلاغا فى البوليس .. فأحضروا الشـــاب والبنت ، وسألوهما ... قال الشاب :

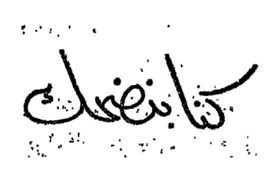
ـــ هى اللى بتطلع عندى . . وأنا ما اقدرش أطردها . !

وقالت البنت :

ـــ أنا بطلع عنده عشان بيجيب لى تفاح .. وأنا باحب التفاح ، ومن زمان نفسى فيه . .

وقالوا للمعلم حسين يومها فى البوليس :

ـــ خد بنتك يا راجل انت..وإبقى هات لها تفاح ، وهى معادتش تطلع السطوح . !


كتاب ضحك

آخر النهار ينتهى العمل . .

يعود الرجال وقد طحنهم الإنهاك . .

رؤوسهم تكون ثقيلة وكبيرة حينذاك . . وتكاد تسقط فوق أكتافهم وعيونهم تكون ساخنة وحمراء من البرد والصداع . .

وهم يظلون واقفين على محطة الأتوبيس في قلب البلد . . يرقبون الشمس وهى تغيض . . ويرتجفون . . والشمس تنسحب ثم تنسحب السحب الكثيفة الباردة تمتص حرارتها فتغيض فى وهن يملأ صدور الناس بالشجن . ويدفع فى رؤوسهم صور البيت والأولاد . . والطعام الساخن والسرير ، والنوم والراحة الدافئة . .

ويرمقون الأفق فى إنهاك . . عند نهاية الشارع الطويل . . الطويل . ويدققون النظر فى لافتات العربات التى تبرز بمقدماتها ، تلمع عليها حبات المطر ، عند أول الطريق . . ينتظرون ستة وعشرة وثلاثين وخمسة وعشرين ...

* * *

الشمس تلقى ظلالا واهنة على أتوبيس واحد وعشرين وهو يدور حول المحطة لينطلق فى شارع فؤاد ، وعندما قفزت إليه كان الجزء الخلفى



من العربة يكاد يسحقنى . .

فى الركن المقابل لى خمسة شبان .. يرتدون الجلاليب ، ويثرثرون وعلى ملامحهم فرحة أسيانة ... ثرثرتهم صاخبة .. ثم يضحكون ضحكا له صليل . . وينادون بعضهم بأسمائهم ويضربون أكتافهم بأيديهم وهم يلقون بالفكاهات ..

* * *

كان من الواضح أن حديثهم قد بدأ قبل أن أقفز إلى العربة . . ولكننى لاحظت أنه يدور حول موضوع واحد أو إثنين .. كانت الكلمة الواحـــدة تتشعب بهم إلى أكثر من حديث يشترك فيه كل منهم وهو يلوح بذراعيه ..

من خلال حديثهم عرفت أسماءهم . . عبده وانور وحسين وأحمد ومحمود .. كان عبده عريض الكتفين ، متوسط الطول .. يغطى صدره بملابس ثقيلة .. قال فجأة ، وهو يغمز بعينه :

ـــ بس . . زى ما قلت لكم كده . . كان جنى . . والضرب شغال . . وكنا بنضرب كلنا . . وبعدين بصيت ملقيتوش .. قلت هرب .. أعمل إيه ... ؟!

وضحك الثلاثة ..

وابتسم عبده وهو ينظر إلى محمود فى خبث .. كان من الواضح أنه يتعمد السخرية منه .

وصرخ محمود فى عنف :

ـــ قلت لك ألف مرة يا عبده متقولش كده .. عيب .. ميصحش

إنت عارف انى مهربتش ..

وغمغم عبده فى مكر :

ـ لأ... أنا مش عارف . أنا بصيت ملقيتكش جنبى .. قلت لازم هرب ..

ولم يكمل عبده حديثه ، فقد اندفع محمود فجأة ، وغرس أصابعه فى رقبته راح يضغط فى غيظ وهو يغمغم :

ـ ياعبده أنا قلت لك مش حيحصل طيب لو قلت كده تانى ... وتحشرج الكلام فى فم عبده . وانطلقت من بين شفتيه غرغرة كأنما يوشك أن يلفظ روحه ..

* * *

وتدخل واحد من الركاب عريض الكتفين ليخلص عبده من يدى محمود ودارت كل الرؤوس فى العربة إلى الوراء تتابع ما يحدث دون تعليق . وجذب حسين محمودا حتى أبعده عن عبده .. فوقف يحدق فى الناس والغيظ يخنق وجهه ..

قال وهو يكاد يبكى :

ـ قلت له ألف مرة أنا مهربتش .. وهو عارف كويس .. كنا بنضرب سوا .. كلنا .. وبعدين الواد أنور قال لى الحق بيتكم انضرب يامحمود .. أنا عقلى طار .. طلعت أجرى عا البيت ..

أمى كانت نايمة هناك لوحدها .. عيانة ..

اتبهدلت من الشظايا والطوب اللى بقى يجى فى جتتى .. والرصاص

اللى بيرش حواليه وأنا طالع أجرى .. رحت لقيت نص البيت طاير شفت أمى وأنا تحت قاعدة على السرير فى تانى دور مش قادره تتحرك ، زى ماتكون متعلقة فى السما .. ووشها مخطوف .. البيوت اللى قدامنا كلها إطبقت .. طلعت فوق الهدد والطوب وشلتها وجيت بهـا على مصر عند خالى ..

وهو عارف كده .. قلت له الحكاية ألف مرة وبرضك يقول هرب

وانزوى محمود فى ركن العربة وأخفى وجهه فى ذراعه .. وأخذ يبكى

* * *

ساد الوجوم الجميع ..

أخذ الركاب يحدقون فى صمت مأخوذ .. رفع محمود وجهه فجأة وصاح فى وجه عبده ..

ـــ إنت خدت إيه يعنى .. آه .. خد تلك رصاصتين .. وإيه يعنى ما أنا رجليه أهم .. كلهم شظايا ..

ورفع محمود جلبابه ، فكشف عن ساقيه وقد بدت فيهما آثار الجروح

وأخذ عبده يحدق فى ساق محمود .. كالمذعور .. بدا كأنه لم يتوقع كل هذا الذى حدث من محمود .. تزحزح من مكانه فى بطء مرتبك ، ومد يده القصيرة ووضعها على كتف محمود المرتفع .. بدا ساذجاً مضحكاً وهو يصالحه .. ويحاول أن يشعره بكل العطف والمودة والندم .. بكل المشاعر المتضاربة التى تراوده .. وأخذ يغمغم فى ارتباك :

ـــ لامؤاخذه يا محمود .. متزعلش .. ماكانش قصدى .. الله .. إنت بتزعل بسرعة .. أنا باهزر بس .. كنا بنضحك يا أخى .. حقك على ..

وشب على أطراف أقدامه ، ثم جذب رأس محمود ودفنها فى صدره وغرس فمه فى شعرها وقبله فى حنو بصوت مسموع ..

ورفع محمود رأسه وهو يغمغم :

ـــ أمى متكسحة . . يعنى كنت أسيبها تموت لوحدها ..

ـــ لا يا أخى .. تسيبها ازاى .. حد قالك كده .. أنا عارف إنك مهوبتش .. محدش فينا هرب أبداً .. أنا كنت باهزر . بلاش تهزر ياسيدى .. حقك على . . إضحك بقى . .

ونظر محمود إلى عبده فى صمت ، وجفف دموعه فى كم جلبابه . . ثم ابتسم . .



لم تفكر نعمات فى أن تغلق الباب .. لكنها بعد أن دخلت فى فراشها ، وجذبت الغطاء حول جسدها ،وأحست بوقد الجمر الذى يلتهب فى داخلها . . قامت فى سرعة ، ثم جذبت الباب بعنف وأغلقته . .

وعندما عادت إلى فراشها ، ولذعتها برودته ثانيا ، بصقت ناحية الباب فى حنق ، ثم إنزلقت تحت الغطاء وهى تغمغم بكلام قبيح !

ولقد حاولت الست نعمات أن تنام ، فأعطت للباب ظهرها ، ودست رأسها تحت اللحاف وأغمضت عينيها ..

لكن النوم بالرغم من ذلك لم يطبق جفونها .. وقد ظلت تحمل جسدها وتلقيه على الفراش من جنب إلى جنب . . وتمد ذراعيها فتحتضن بهما الفراغ الأسود الذى يملأ السرير حولها . . وأخذت تتنهد فى حزن ثم استدارت إلى الحائط بعنف ، وأعطت للباب ظهرها من جديد . .

وعندما شعرت بالضيق يخنق صدرها ،نهضت إلى الباب فجذبته بحدة، ثم تركته مفتوحا وعادت إلى السرير ..

وبعد ساعتين ، كانت نعمات ماتزال صاحية .. !!

ومن نهاية الصالة المربعة ، تسلل خلال الصمت صرير باب يفتح .. وزحفت على البلاط خطوات أقدام .. فقفزت نعمات فجأة ، وقعدت فى السرير ، وأرهفت أذنيها ..

كانت الخطوات قد توسطت الصالة ، وكانت تلمس الأرض فى حذر وتردد .. شعرت نعمات بأن كيانها كله قد إستحال إلى أذنين ! !

وأمام الباب توقفت الخطوات ..

الباب مفتوح .. . قالت نعمات فى نفسها .. الباب مفتوح والدنيا ليل .. لاشىء الآن يستطيع أن يعوقه . .

وتلاحقت أنفاس نعمات ، حتى لقدخيل لها أنها فى تصعدها تكاد تخلع صدرها .. وتقلصت أصابعها على غطاء السرير ، وسرت فى جسدها رجفة هزت كل خلجاته .. وعادت آذانها تتشبث بالصمت من جديد . . لكن الأقدام واصلت المشى ، وظل حفيف احتكاكها الخافت يوش فى أذنى نعمات فى نغم يرعش أعماقها ..

مضى يا نعمات .. مضى وابتعد .. الجبان .. لم يدخل .. لم يتسلل إلى الغرفة فى حذر .. لم يطل الوقوف أمام الباب ..

وشعرت نعمات برغبة قاسية فى البكاء .. لكن الدموع كانت محتبسة فى صدرها وحلقها .. وتكاد تخنقها ..

وأجالت نعمات عينيها فى العتمة المحيطة بها ، ثم أرسلت من صدرها آهة جافة ، تركت فى الصمت خشخشة كأوراق الخريف ..

وخلال الظلمة رفصت نعمات اللحاف إلى آخر السرير ، ثم أخذت تحمل جسدها ، وتقذف به من جنب إلى جنب .. ومدت ذراعيها

البضتين المليئتين فاحتضنت بهما الليل البارد حولها . وأعطت الباب ظهرها محاولة أن تنام ..

وعند الفجر على التقريب . . حينما قرعت إسفلت الطريق عجلات أول عربة . . كانت نعمات ما تزال صاحية . . !

* * *

فى الصبح دخلت نعمات إلى الحمام . . وما كادت تقترب من الحوض حتى أجفلت . . وصعدت إلى حلقها مرارة كراهية ليلتها الفائتة .. لكنها بالرغم من ذلك نظرت إلى عباس فى رغبة ..

كانت رأسه تحت الحنفية ، والماء يغمر شعره ووجهه ؛ فانفلتت من جواره وهى تهمس فى دل ..

ـــ أزيك يا سى عباس .. !

وفى الواقع أن عباس لم يسمعها .. فقد كان الصابون يملأ أذنيه .. إلا أن حمرة الخجل صعدت إلى خديها . وسخنت رأسها وأذنيها . . وقد ضايقها جداً أن عباس لم يرها . . بل أنه أيضاً لم يحاول الرد على تحيتها ..

ومدت نعمات يدها فتناولت السلطانية ثم تسللت من خلفه .. وارتدت شيئاً فوق منامتها . . وبعد قليل كانت تدرج على السلم وهى تدعك خديها بكفيها الباردتين ، لترطب حرارتهما ..

وعندما عادت الست نعمات ، وبيدها سلطانية الفول ملآنة . . كانت ما تزال تسترجع فى ذهنها كلمات المعلم مدبولى ، صاحب مطعم « السعادة الأبدية للفول والطعمية » ! .

الرجل اللئيم ، مد يده وهو يناولها السلطانية ، ولمس صدرها بأصابعه ثم غمز بعينه . . ونعمات تعرف تماما معنى غمزته ..

فقد كانت تستهدف قوامها كل صباح ،عند انصرافها بالفول . منذ عام . . قبل وفاة زوجها المرحوم مخلوف بشهرين على التقريب . .

وانتد تجاهلت نعمات غمزة المعلم مدبولى هذا الصباح . . كما تجاهلتها فى كل الأصبحة التى فاتت ، على الرغم من أن أعماقها كانت تنتفض فى نشوة خاطفة سريعة فور تلقيها . .

وما يزال يترددفى أذنى نعمات وهى تصعد السلم . صرير كلمات الرجل الخبيث وهو يتابعها فى مضيها من أمام المحل :

ــ لسه يا حلو مآنش الأوان ؟ .

ونعمات تذكر ذلك كله ، فيشيع فى جسدها خدر لذيذ . . وتنساب فى صدرها أمنيات تدغدغه . . وتتمتم لنفسها وهى تدلف من الباب :

ــ أمال سى عباس ماله ؟ . . مدهول على عينه ليه ؟ !

* * *

وحين انتهت نعمات من توضيب الفطور على المائدة الصغيرة ذات الكرسى الواحد فى ركن الصالة كان عباس قد إنتهى من ارتداء ملابسه وقد شمر أكمامه فبانت سواعده السمراء المفتولة.. وقد وقف أمام المرآة الصغيرة يمشط شعره الأسود القصير . .

ومضت فترة خرج بعدها عباس يشيع من حوله شبابا وفتوة . . فأحست نعمات عند مرآه ، برجفة تدغدغ أعطافها ..

وعندما جلس إلى المائدة بعد أن ألقى عليها بتحية الصباح ،ووجهه إلى الأرض . . وقفت فى ركن الصالة ترقبه وهو يأكل ، فتدفع أمامه بطبق الزيتون الأسود ، وتقرب منه الجبن ، وتملأ كوبة الماء ..

وتشعر خلال ذلك بسعادة عذبة تهدهد قلبها . .

وحين انتهى عباس من طعامه ، وجمع حاجياته فى يده ، وراح يتقفز على السلم إلى الطريق .. مدت نعمات رأسها من خلال الدرابزين ثم صاحت:

ـــ سى عباس . . متبقاش تتأخر الضهر . .

ولما انهمكت بعد ذلك فى شئون البيت ، وانكبت على الملابس تغسلها .. كانت ما تزال لديها القدرة على التفكير فى عباس !

* * *

وعادت نعمات بذاكرتها إلى الواقع الغامق الذى نسج خيوطه زوجها مخارف بأعوامه الخمسين .. ومرضه الذى كان يقعده فى البيت لا يغادره، منذ اليوم الذى دخل بها فيه ..

وتكتئب نعمات ، وتزفر ، ويزرد وجهها ، ويزرق ، ويحمر .. وهى تجول خلال الصفحات الخشنة التى سطرها زواجها من فريبها المخاوف ..

حتى مات منذ شهور ..

وفكرت نعمات فى الجفاف الذى عانته خلال الأيام التى قضتها وحدها فى البيت الذى ورثته .. والعذاب الذى ظل يؤرقها ويحرق جسدها على الفراش الطرى ، فى الليالى السود الموحشة .. قبل أن يجىء عباس من البلد ليقيم فى بيتها بغرفة من الغرف .

وهى حين تفكر فى اللحظة التى رأت فيها عباس أول مرة . . مع جده .. حين قدمه لها على أنه إبن خال زوجها المتوفى وسوف يتعلم فى الجامعة .. واوصاها برعايته خلال السنين التى سيقيمها فى مصر ..

وقد قال لها جده فى ذلك اليوم أنه سوف يرسل لها بين كل حين وحين قرشين .. مصاريف عباس . . حين تفكر نعمات فى ذلك .. وتستعيد

فى ذهنها صورة عباس وهو يرفل فى بذلته الجديدة اللامعة القماش ، بفتوته وشبابه الريفى البسيط .. تعود الى قلبها تلك الرجفـــة اللذيذة التى تسرى فى أعطافها كالخدر .. وهى تذكر أنها منذ اللحظة الأولى التى رأت فيها عباس .. قد قدرت فى نفسها أنها لابد سوف يحصل لها مع هذا الولد أمر . . !

لكنه اليوم .. وبعد خمسة شهور .. ما يزال عباس مثل اليوم الأول الذى جاء فيه مع جده ..

وكل الذى حدث ، أنه فى الشهر الاخير .. اعتادت أن تسمع خطوه وهو يقطع الصالة .. ويتوقف عند غرفتها فى عتمة الليل .. فتظل تمد أذنيها إلى الباب .. وتتشوف بكل حواسها .. تتوقع بكل خلجاتها أن ينسل اليها ..

ونعمات قد قدرت كل شىء .. وعملت حسابه .. وانتهت إلى أنها خلاص .. لم تعد تستطيع الاحتمال ..

وهى كانت متأكدة تماما ، من أنه يفكر فيها .. فهو يحوم كل ليلة عند المنتصف .. ويلصق أذنيه بالباب .. ويقطع الصالة جيئة وذهابا فى حذر . . ثم يعود إلى غرفته . .

والذى ظل يحدث طول الشهر الماضى كله . . لم يزد عن ذلك . . لكنه لم يحاول أبداً أن يدفع الباب ويدخل . . أو ينسل منه . . فهو يطل عليها خلال الصمت ، ثم يعود فى هدوء إلى غرفته ليروح فى النوم .. ويتركها تحتضن الفراغ الأسود بذراعيها البيضاوتين . . وتحمل جسدها وتلقيه على الفراش .. وتعطى للحائط ظهرها . . وتقوم فجأة حين يضيق صدرها ، وتفتح الباب .. ثم تعود فتغلقه فى عنف يمزق صمت الليل ..!

لكن نعمات فى ليلة كانت متعبة ، فنامت فى أول الليل . . ولم يكن عباس قد عاد إلى البيت بعد :

وفى منتصف الليل . . على التقريب . . تقلبت نعمات ، ثم فتحت عينيها . .

كان الظلام يسود الغرفة . . لقد نامت عندما كان الليل ما يزال فى أوله . . لكنها تذكر أنها تركت باب غرفتها مفتوحا . . إنه الآن مغلق

الدنيا حر . . والهواء ساكن . . والباب كان مفتوحا . .

والليل قد أوغل الآن يا نعمات . . لا بد أن عباس قد جاء . .

وقد شعرت نعمات أن قلبها قد إرتجف حين فكرت فى عودة عباس وقفزت من سريرها فى خفة . . وفتحت الباب . . ومن نهاية الصالة المربعة ، كان النور يزحف على البلاط من أسفل باب غرفة عباس . .

ودرجت نعمات على بلاط الصالة حانية . . عباس يذاكر . . المسكين . . يسهر الليل لاصقا وجهه بالأوراق . . لا يفكر أبدا فى شبابه . . لا يدخل السينما ولا يتفسح مثل باقى التلاميذ . .

ومدت نعمات رأسها وألصقت أذنها بالباب . .

سمعت فى الغرفة همسا غريبا . . توقف قلبها عن الدق . . واحتبست أنفاسها فى صدرها . . وإنحنت فى لهفة ودست عينها فى ثقب الباب . .

وسدت نعمات فمها بيدها لتحبس شهقة كانت تنطلق . .

لم تصدق نعمات عينيها . . لكن الحقيقة كانت واضحة . .

الملعون . . !

وإنتصبت نعمات واقفة ..

كان الغيظ يأكل قلبها ..

فكرت فى أن تدفع الباب بجسدها فيهوى على السرير بالداخل ، ويحطم الاثنين خلفه ..

فى الأول لم تفكر نعمات فى أنهما إثنان .. لكنها دققت النظر .. كان السرير أمام الثقب تماما ..

وتنهدت نعمات فى غيظ ، وانحنت على الثقب ودست عينها فيه من جديد .

كان الهمس الخافت يخرق أذنيها .. وقلبها يضرب صدرها بعنف .. فيعلو على صوت إرتطام السرير بالحائط ..

وشعرت نعمات بحلقها يجف ..

الجبان .. !

لماذا كان ساكتا من البداية ..

أحست نعمات بعينها تجحظ .. وتجحظ .. حتى لتوشك أن تنزلق فى الثقب ! ..

وانغرست أظافرها فى خشب الباب ..

وتخاذلت أقدامها .. وارتجف جسدها من إخمصها حتى القمة ..

ومن الداخل .. إنقطع الهمس المبحوح فجأة .. ثم ساد السكون ..

شعرت نعمات بالدوار ..

كان رأسها يلف .. وعيونها ساخنة .. كأنما فيهما نار .. ولم تستطع أن تبتلع ريقها .. كان فمها جافا من الداخل كقطعة من الخشب.

تنهدت فى عمق ..

ـ الصبح أخلى عيشته هباب ..

قالت تحدث نفسها :

ـ الجبان .. !!

ومضت تجرجر أقدامها فى تخاذل إلى غرفتها ..

ـ آه .. الندل .. لازم يعزل من الصبح ..

كان يمور بداخلها شعور غريب .. لم تألفه .. ربما تحاول أن تخدع مشاعرها ..

خيل لها أنها تود لو أنها ظلت ترقبهما وقتا أطول .. لكنهما إنتهيا .

من أين جاء بها عباس ؟ .. لا تذكر نعمات أنها قد شاهدتها قبل ذلك كانت ملابسها ملقاة على الكرسى .. وبجوارها حقيبة يد بيضاء ..

ـ من الصبح .. لازم يشيل هدومه ويشوفله حتة تانية يقعدفيها .

شعرت نعمات بالتعب ، فاستندت على باب غرفتها .. ثم تحاملت على نفسها وألقت بجسدها على السرير .

وأحست نعمات بالفراش الطرى يدغدغ جسدها .. فتمددت على ظهرها ، وأغلقت عينيها ..

ـــ آه .. العبيط .. !

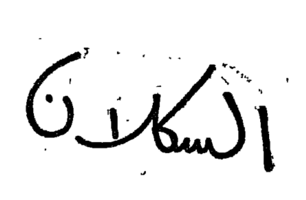
همست فى حرقة ..

ـــ الأعمى .. !

إستطردت فى غيظ ..

ـــ جابها منين الحمار ده .. !

وبسطت ذراعيها البيضاوتين على الفراش الطرى حول جسدها .
ثم تنهدت فى راحة .. وأخذها النوم ..


السكان

أكل السكلان مخ المعلم شعلوق ، فهو يزور الروشتات باسمه وبأسماء مختلفة ، ويبعث نقوده على صبيانه الذين يدورون طول النهار على الأجزاخانات ، يتحايلون للحصول على أكبر كمية من أقراص المخدر اللعين . .

وعندما يصحن المعلم شعلوق القرص ، ويصبح مسحوقا ناعما فى راحة يده ، يرتشفه بأنفه فى نهم غريب ، وتذوب عيناه فى أشباح الكائنات . . وتصبح الدنيا عنده مجرد صرمة قديمة لا تساوى منه عناء الالتفات . . لذلك فهو يرفض فى كبرياء شامخ أن يشتغل فى مهنة من المهن ، وقد ورث عن أبيه ثروة كبيرة حصلها الرجل من تجارة الخشب والصفيح والخردة ومختلف الأشياء . . وورث عن أبيه أيضاً مزاج السكلان . .



ومنذ اليوم الأول حين سرت فى شعاب أنفه قشعريرة النهم الغريبة من ذرات السكلان ، أخذ يضرب بأقدامه شوارع البلدة وهو منفوخ كالديك وقد ملأ المخدر كيانة كله بالغرور العنيد .. منذ ذلك اليوم ، أبى المعلم شعلوق إباء صارما ، أن ينزل من هيلمان العنجهية ليقوم بعمل من الاعمال . . لكن المعلم شعلوق لم يكن وحيداً فى الحياة ، فقد كانت له زوجة . . وله أقرباء . . وكان لزوجته أقرباء أيضاً . . ولما وجدت زوجته أن الجنيهات المائة المتبقية من الإرث،سوف تتحول إلى مسحوق أبيض ينساب فى أنف زوجها على مر الأيام،ساقت على الرجل أقرباءه وأقرباءها ، ليقنعوه بأن يبحث له عن شغلانة ، يرمى فيها بالقرشين ، لتضمن من ورائها قوت العيال ..

واجتمع الأقرباء حول المعلم وانفضوا .. واجتمعوا ثانياً ومعهم كل الناس الذين يعرفون المعلم . وانفضوا .. وساقوا عليه مشايخ البلدة وأولياءها.. حتى نزل الرجل عن عناده أخيراً وقرر أن يفتح بالقرشين دكان مانيفاتوره ..

منذ ذلك اليوم بدأ المعلم شعلوق ينظر إلى المسألة بعين الجد .. لقد تورط فى الوعد ، وعليه أن يسير فيه حتى النهاية ..

نزل ماشيا من شبرا الخيمة،وسار يحلق بعينيه فى شارع شبرا العمومى على الجانبين .. وعندما عاد آخر النهار كان قد وجد الدكان . قال لزوجته:

ـــ حته عال قوى يازكية .. فى الشارع العمومى فى وسط البلد.. على

ناصية شارعين .. وجانى على طول جدع شربتلى ابن حلال ، اتوسط لى عند الراجل صاحب العماره لحد ما خدت الدكان بتمانية جنيه..مبسوطة ياستى .. قومى اصحى لى القرص ده خلينى أروح أتفق مع النجار ..

***

وفى خلال شهر ، كان الخشب والمسامير والزجاج ومعدات الدهان قد ملأت كلها أرض الدكان .. وكان المعلم شعلوق قد سحب كرسيا من دكان جاره المعلم حموده الشربتلى ، وقعد به على الناصية يراقب النجار وصبيانه وهم يحيلون الخشب والمسامير إلى رفوف ينظمونها حسب مقاسات الجدران ..

كان المعلم شعلوق قد زار كل محلات المانيفاتورة التى فى البلد..وتأمل تفاصيلها ، ونظام رفوفها وبتارينها .. وفى خلال هذا الشهر الطويل العريض ، قرر المعلم فى نفسه ، الرسم الذى سيكون عليه الدكان..وأنهى قراره إلى النجار ..

وبدأ العمل فى الدكان على قدم وساق .. كان المعلم يقوم من النوم فى الصبح ، فيفطر ، ويصحن القرصين. ويسحب جسده واحدة ، واحدة حتى يصل إلى الدكان قبل الظهر بقليل .. فيجلس على مقعده يرقب العمل والعمال ..

ولم يمض أسبوع حتى أوشك العمل بالدكان على الإنتهاء .. كانت الرفوف قد إستقامت على الجدران .. والحاجز الذى يفصل بين البائع والزبائن ، قد ىلوى من ناصية الباب اليمنى إلى آخر الدكان من الداخل ، فاصلا الفراغ إلى قسمين ..

والمكتبة العالية التى أوصى بصنعها المعلم ليقعد عليها يقبض الفلوس

من الناس ويراقب العمال ، كانت قد انتصبت هى الأخرى بجانب الباب وخلفها المقعد العالى ..

وكانت أرض الدكان مليئة بنشارة الخشب .. والبترينة الكبيرة المنتصبة فى الواجهة قد ابتلعت ثلاثة أرباع الباب. ولم يعد ينقص الدكان شيئاً سوى الدهان وأثواب القماش .. التى قال المعلم لكل من تحدث معه فى أمرها ، أنه سوف يحضرها من أكبر المخازن فى مصر . .

وفى تلك الليلة نبه المعلم شعلوق على النقاش أن يقوم بأعمال الدهان من الفجر ، حتى يمكن الانتهاء فى وقت قريب . .

* * *

فى اليوم التالى . . عندما اقترب المعلم شعلوق من الدكان قبل الظهر بقليل . . وجد زحاما من الخلق ، وزعيق وصراخ . . فانحشر بين الناس حتى وصل إلى الباب . .

كان المعلم حموده الشربتلى هائجا .. فهو يرفع ذراعيه النحيلتين ويلوح بهما وهو يصيح :

ـــ ده موش نقاش . ده حمار إبن حمار .. علشان يدهن عشرة سنتى من الباب ، يقوم يلخمط لى المكنة والبرطمانات ، ويرش البويه طالع نازل بالشكل ده . . يخسر لى أكل عيشى .. بقى موش حرام ياناس .. ؟

كان النقاش فاتحا ساقيه على سلم مزدوج ، وجردل البويه بين قدميه، والفرشة الكبيرة فى يده .. وأمامه بالضبط قطعة من الباب مدهونة ، لا تزيد فعلا عن العشرة سنتيمترات . . بينما كانت واجهة محل الشربتلى

مليئة ببقع الطلاء الزرقاء التى تناثرت أثناء الدهان بشكل مبالغ فيه . .
فبدت على الواجهة الزجاجية كالبثور فى وجه مريض ..

وكانت مكنة العصير والرخامة، والأوانى النحاسية اللامعة قد أصابها الرذاذ أيضاً .. حتى ليخيل إليك أن النقاش كان يقصد أن يدهن دكانة الشربتلى بطريقة جديدة . بدلا من دكان المعلم شعلوق . !

وما كاد المعلم شعلوق يمد رأسه ليتدخل فى المناقشة المحتدة بين المعلم حموده وجمهرة الناس ، حتى صرخ المعلم حموده فى غيظ :

ــ يامعلم شعلوق .. لامؤاخذة . . إنت راجل غشيم..إنت جايب واحد حمار ..

وبهت المعلم شعلوق .. وأحس بأن كبرياءه قد طعنت أمام كل هؤلاء الناس . . وسخنت فى رأسه كل العروق المليئة ببخار السكلان . .

وإنفجر شعوره القديم بالمهانة ، لإقدامه على الشغل فى عمل من الأعمال . . وصرخ فى عنجهية مختنقة دون أن يترك للمعلم حمودة فرصة لإكمال حديثه :

ــ أنا راجل غشيم يامعلم حمودة ؟ . . طب على الطلاق بالتلاتة ، لانا عامله شربات . . إنزل ياجدع متدهنش . . !

* * *

وفى أيام ، تحول دكان المانيفاتورة إلى دكان عصير . . هدم المعلم شعلوق كل مابناه .. واعاد التوضيب والتنظيم . ودهن ونظف واشترى رخام ومكن عصير وأكواب ، وكراسى وضعها فى جانب من الدكان . .

واشترى برتقال وقصب وجزر وطماطم وكل مايصلح للعصير . .

لكن المعلم شعلوق لم يكن يعرف شيئاً فى هذا الكار الجديد . .

فاشترى البضاعة غالية .. وقد سحب كرسيا وقعد على واجهة الدكان مهموما ..

لقد أحس بأنه تورط فى هذا العمل الجديد .. كانت المانيفاتورة شغلانة واضحة . وكان يستطيع التغلب على أسرارها .. لكن شغلانة العصير هذه لا يعرف لها أولا من آخر..وتجار الفاكهة أولاد حرام.. ضحكوا عليه ..

كان مكتئباً .. حزيناً .. قد تدلت رأسه بين كتفيه كأنما يحمل الدنيا كلها فوق ظهره .. ولم تعدل مزاجه كل أقراص السكلان التى شمها طوال النهار ..

راوده الشعور بالتوحد .. أحس بأنه مهجور . وبأن المعلم حموده والصبيان والأقرباء ، وكل رجال الحتة يضحكون عليه من ورائه .. ويهزأون منه ..

خبط رأسه فى غيظ وغمغم فى ألم :

ـــ خلاص . . ضعت يا شعلوق . . السكلان أكل مخك زى ما بيقولوا . . انتهيت .. بقيت مسخرة فى وسط الناس .. !

وعندما رفع شعلوق رأسه ، كان المعلم حموده واضعا يده النحيلة على كتفه فى مودة . . وقد ابتسم فى وجهه وهو يهمس :

ـــ يا معلم شعلوق .. متآخذنيش .. الزعل ما بيدومش . والناس لبعضها .. واحنا جيران ياخويا .. ومتآخذنيش برضه ، شغلانة زى دى جديدة عليك .. أنا تحت أمرك .. تجار الفاكهة اللى أنا بتعامل معاهم حا اعرفك بيهم واحد واحد .. وا ..

وانتفض المعلم شعلوق واقفا وقد اربد وجهه ، وصرخ فى المعلم حموده فى حنق :

ــ هو أنا هفية يامعلم .. أنا راجل برضه .. أنا أفهم فى كل حاجة . ، تحب أبيع فيه سمك دلوقت . . على الطلاق بالتلاتة أعملها . .

كان المعلم شعلوق ينتفض من قمة رأسه إلى إخمص قدميه .. وقد ركب التشنج كل حواسه وزاغت عيناه ..

وقد انسحب المعلم حموده إلى دكانه فى صمت .. وهو يضرب كفا بكف .. وغمغم وهو يتلفت حوله فى حسرة :

ــ لاحول ولا قوة إلا بالله .. الراجل ضاع خلاص .. انتهى .. السكلان أكل مخه ..



كنا فى أول السنة ، ولم تكن الدراسة قد انتظمت بعد فى المدرسة لأن أكثرنا لم يدفعوا المصاريف ..

وكنت أنا وجمال وكامل ، قد دفعنا القسط الأول .. لكن حمدى لم يكن يملك نقوداً ليدفعها ، فهو يعيش وحده فى مصر بثلاثة جنيهات يرسلها له أبوه أول الشهر ..

وأنا وجمال وكامل وحمدى بلديات ، وجمال وكامل أولاد عمى .. وأبو حمدى ، يعمل غفيرا فى زراعتنا ..

وقد كنت أسكن مع أولاد عمى فى شقة بشارع نوال فى الدقى .. وكان حمدى يسكن فى غرفة ضئيلة بزقاق موحل ، بحارة الميضة ..

كان حمدى فى فصلنا .. لكنه لم يدخل المدرسة معنا فى أول السنة ، لأنه لم يدفع المصاريف ..

كنا نذهب إلى المدرسة كل يوم فى الصباح فنجد نصف الفصل غائباً ، فنحضر حصتين ، ثم نزوغ باقى النهار فى شارع فؤاد ، أو قصر النيل ..

وكانت لنا فى الليل سهرات عابثة .. وفى تلك الأيام كان يأسرنا نوع من الكسل المريح اللذيذ .. كسل لا عتاب بعده ولا لوم .. فلم تكن لدنيا مذاكرة .. كنا أننا كنا نتقبل الدروس بشىء من اللامبالاة .. ونعلل ذلك فى نفوسنا ، بأن لنا زملاء غائبين ، من حقهم أن يشاركونا فى هـــذه الدروس .. لكننا فى الواقع .. لم نكن نفكر بهذا القدر فى زملائنا !

وقد كان حمدى يتمشى معنا فى شارع فؤاد .. وفى بعض الليالى كنا ندعوه للسهر معنا فى سينما أو كباريه ، فكان يجىء ، ويظل طوال الوقت واجما ..

وأحيانا كنا نأخذه ، ليسهر معنا فى البيت .. لكننا لم نكن نفعل ذلك أبداً فى يوم الخميس !

ففى ذلك اليوم من كل أسبوع ، كانت تزورنا وفاء .. وتنام معنا تلك الليلة ، وتقوم فى الصبح فتحضر لنا الفطور ، وتغسل ما اتسخ من ملابسنا طوال الأسبوع ، ثم تطبخ لنا أكلا للغذاء ، وتنام معنا بعد الظهر .. وعند المغرب تلبس ملابسها وتخرج، لتذوب فى شوارع المدينة

وكان كل منا يعطيها خمسين قرشاً ..

* * *

وفاء فى العشرين من عمرها ، لكنها تبدو فى الثلاثين ... وبالرغم من ذلك فهى تحتفظ بقدر من جمالها لم ينله الذبول .. وأنت تحس بطراوتها عندما تتكور فى حضنك بوداعة ، كقطة مقرورة تطلب الدفء وفى عينيها تحس طيبة بريئة ، لم تكن تفسدها تلك الشراسة التى رسمتها ظروف حياتها على وجهها ..

وقد كنا جميعاً نحب وفاء .. وكانت أسعد أيامنا تلك التى تزورنا فيها .. ونتمنى لو أنها بقيت معنا طوال الأسبوع . ولم يكن بإمكاننا أن ندفع لها ثمن هذا البقاء .. كما أنها لم يكن باستطاعتها أن تمنحنا لحظة واحدة بلا ثمن ، لأنها تعول أمها وأختها الصغيرة التى فى المدرسة ..

قلت لها مرة وهى نائمة معى :

ــ انت ياوفاء بنت كويسة ، باين عليك من ناس طيبين .. إيه اللى مشاك فى السكة دى ؟ !

وأذكر أنها قد خفضت عينيها ، ودخلت بوجهها تحت الغطاء وغمغمت بكلام غير مفهوم ..

ولما أعدت عليها السؤال فى إلحاح ، قالت :

ــ الدنيا عايزه كده !

ــ طيب ما كانش فيه شغلانه غير دى !

فسكتت قليلا ثم همست :

ــ أبويا مات .. وأصل أنا ما اتعلمتش ياسى يحيى .. ما رحتش مدرسة ..!

وحين حاولت أن أقطع الصمت الذى سادنا التصقت بى وأحاطت رقبتى بذراعها ، ودست رأسى فى صدرها ، فضاع منى كل ما كنت أرغب فى أن أقوله ..

* * *

فى ظهر أحد أيام الخميس ، جاءنا حمدى يطلب كراريسنا لينقل منها ما فاته . . ولم تكن وفاء قد جاءت بعد . . وكنا نشعر فى ذلك اليوم بسعادة غامرة تجول خلال مشاعرنا . . وكانت نفوسنا مليئة بذلك الاحساس الذى يدفعنا لنغدق من سعادتنا على من حولنا . . كنا نضحك فى حبور . . بينما حمدى يبدو كئيبا . . فعرضنا عليه البقاء ليتغذى معنا ، فقبل ذلك بعد تردد قليل وقد بدأت تتبدد كآبته . .

حين جاءت وفاء ، قدمت لها حمدى بصفته زميلا فى المدرسة . . وبلدياتنا . . ولكن جمال إبن عمى لم يسترح حتى انتهز إحدى المناسبات وقال لها إن حمدى ابن غفير زراعتنا . . وأنه لم يدخل المدرسة ، لأنه لم يستطع أن يدفع المصاريف . .

وفى تلك الليلة لم تتكلم وفاء مع جمال أبداً .. ولم تبتسم فى وجهه ..
وفى صباح الجمعة أيقظتنا وهى تقدم لنا الفطور .. وبعد أن إنتهينا من الأكل طلب حمدى الكراريس ليخرج ، لكن وفاء أصرت على أن يبقى ليتغذى معنا ، فبقى ..
وقبل المغرب لبست وفاء واستعدت للخروج .. وحين غرزت المشط فى شعرها بعد أن سرحته للمرة الأخيرة ، نظرت إلينا فى انتظار النقود ..
وكانت تلك اللحظة شديدة الوطأة علينا ، فقد كنا فى آخر الشهر ، ونقودنا التى جاءت من البلدة قد نفدت ، ولم نكن نرغب أبداً فى أن نؤخر لوفاء نقودها ..
إنتحيت بها جانباً ، وشرحت لها الموقف فى تردد.
وجمت فترة ، ثم غمغمت فى حشرجة :
ــ معلهش مايجراش حاجة .. أبقى آخدهم بعدين ..

* * *

فى صباح السبت ،وأنا ذاهب إلى المدرسة ، إكتشفت ضياع ساعتى التى أهداها إلى أبى ..
قلبت البيت كله دون أن أعثر لها على أثر ..
وقد كتمت الأمر فلم أخبر به جمال وكامل ..
وبالنسبة لى . لم أستطع أبداً أن أحصر الشبهة فى أحد .. وما كان يمكننى أن أظن أن وفاء قد أخذتها .. وكذلك الأمر بالنسبة لحمدى ..
وقد مضى أسبوع بعد ذلك لم تحضر وفاء خلاله كعادتها فى يوم الخميس .. وانتظرناها بعد ذلك أسبوعا آخر .. لكنها لم تأت ..
وقد بدأ أولاد عمى يفسرون غيابها بشتى التقولات .. وظللت أنا

صامتا .. وقد حاولت أن أتصور ما يمكن أن يفعلاه لو علما بضياع ساعتى .. وما شككت لحظة واحدة فى أنهما سيبلغان البوليس فوراً ، ويتهمان وفاء بسرقتها ، ضاربين بلحظات الهناء التى منحتنا إياها عرض كل الجدران ..

* * *

فى ليلة عدت مبكراً ، وجلست أتذكر ..

قالت لى وفاء ..

ـــ ساعتك حلوه قوى .. جايبها منين ؟!

فنظرت إلى ساعتى يومها بفخر وأنا أقول لها أن أبى قد أهداها لى: فامتدت يدها النحيلة وخلصت الساعة من حول رسغى ، ولبستها ، ومضت تتأملها فى يدها بإعجاب . . ثم سألتنى فجأة ..

ـــ بتعمل بيها إيه . . !

ـــ باشوف فيها الوقت .. .

ـــ لكن مهمه عندك قوى ؟

ـــ طبعا . . عشان هدية من أبويا ..

ووجدتها تتطلع فى وجهى لحظة بوجوم . . وهى تخلع الساعة من يدها وتضعها على المائدة . . ثم تنهدت فى قلق ..

وفى تلك الليلة إنقطع حديثها عند هذا الحد ، فمددت يدى وأطفأت النور .. وفى الصباح لم أتذكر الساعة ، واكتشفت ضياعها وأنا فى طريقى إلى المدرسة .. وبالرغم من ذلك فما استطعت أبداأن أجزم بأن وفاء قد أخذتها ..

* * *

مرضت بعد ذلك .. فأقمت فى البيت أسبوعا لا أغادره .. وقد عاد جمال من المدرسة ذات يوم وهو يصيح :

ـــ يحي .. يحي .. الواد حمدى دخل المدرسة النهاردة .. متعرفش منين جاب المصاريف ؟

ولم أستطع أن أجيب على سؤال جمال .. لكن كلامه فى الحقيقة جعلنى أفكر ..

وبالرغم من أنى كنت أرجح أن وفاء هى التى أخذت الساعة .. إلا أننى لم أحاول الظن بأن حمدى هو الذى فعلها ..

* * *

انقضت على ذلك ثلاثة أسابيع ، لم تعد وفاء أبدا خلالها ..

وقد حرت فى تفسير غيابها .. وتمنيت لو أنها تعود ..

وقد عادت وفاء فعلا .. بعد ذلك بأربعة أيام .. وكان أول شىء فعلته أن انتحت بى جانبا ، وأخرجت من صدرها ساعتى ..

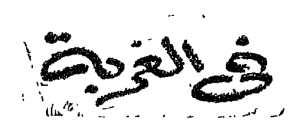
ووقفت أنظر إلى الساعة فى ذهول وأنا أقلب فى رأسى كل مادار به من أفكار .. وغمغمت وفاء بحشرجة فى تلك الليلة ونحن ننام :

ـــ أنا كنت عاوزة اثنين جنيه ضرورى .. فأخدت الساعة ورهنتها .. كنت عارفة إنى لما حاأشتغل بقية الأسبوع حا اقدر أفك الرهن وأجيبها لك تانى .. لكن ما قدرتش أعمل كده المدة اللى فاتت ، مكانش فيه فلوس .. اضطريت إنى ما جيش ..

ثم همست فجأة :

ـــ مش حمدى عزل من سكنه القديم ، وسكن معانا .. فى شقتنا ..

فقفزت بسرعة من جوارها ، ومضيت أحدق فى عينيها بذهول .. وقد بدا لى خلال عينيها الباسمتين كل شىء واضحا ..


في الغربة

فى الأول ظهرت أنا بين يدى امرأة تدلك ظهرى . . وكنت عارياً .. وكانت المرأة ممسوخة ليس لها ملامح . . . لكنى أحسست بها ناعمة اليدين . . . تمر بهما على ظهرى فتخدر كل مشاعرى ! ..

ومن الطبيعى أننا كنا فى بيت . . وكان البيت غريبا عنى . . أحسست بذلك عندما جلت بخواطرى فى أنحائه . .

وكانت بجوارنا امرأة أخرى . . وفتاة . . وكانتا ممسوختين . . بلا ملامح أيضاً ..!

وملابسى ملقاة على السرير فى آخر الغرفه ، وطفل صغير لا يستطيع المشى ، يعبث بها . .

وقد حاولت النهوض ، لكن المرأة لفت ذراعها الطويلة البيضاء حول رقبتى .. وجاءت المرأة الأخرى وربتت على كتفى .. وكانت الفتاة واقفة تتفرج .

وتسرب خوف مقبض إلى قلبى . . فتخلصت من بينهن فى شدة ، ثم وقفت .

ولمع الشر فجأة فى عيون النساء ، وأحسست كأن النار تندلع منها لتحيطنى . . فقفزت فى سرعة ، وتناولت البنطلون من على السرير . .



وسمعتني أقول لهم فى اضطراب وخوف :

ـــ ليس معى نقود أخرى . . . لم تصرف مرتباتنا بعد ..

وضحكت المرأتان فى حشرجة . . وأخـــذت المرأة التى كانت تدلكنى ، تقترب من البنطلون فى قسوة فظيعة ، فضممته إلى جسمى بقوة وحرص . .

كنت أعرف أن به كل أشيائى ..

وقهقهت المرأة الأخرى بلذة النصر وهى تجذب زميلتها من ذراعها إلى السرير .. . ثم أخرجت كل أشيائى من جيوب الطفل الصغير ! . .

ومشى الذعر فى أنحائى وأنا أرقبهم وهم يفتحون المظروف الذى يضم حاجياتى . . . وكان يمزقنى العجز . . . كنت جامداً لا أستطيع الحركة كأنما زمانى قد توقف . . . وكان يعصر قلبى خوف شديد . .

ولاحظت أنى نظرت حولى فلم أجد الفتاة بالغرفة .. كنت ألمس من ناحيتها بعض العطف .. وبجوارى ، رأيت فجأة ، رجلا لم يكن قد ظهر فى البداية .. كان طويلا عريضا ، غير محدود المعالم ، رجلا بلا تفاصيل . . وكان بارداً كالثلج . . حاداً كمدية قاسية ! . .

***

وأخرجت النساء بطاقتى الشخصية وأخذن ينظرن فى صورتى الملتصقة بداخلها . . ويقرأن الكلام المكتوب بجوارها . .

كان بين دفتى البطاقة صورة أخرى كنت أحتفظ بها .. نظرن إليها أيضا بتمعن وضحكن فى غمز واضح،ثم ألقين بها فى وجهى باشمئزاز ..!

ملأنى إحساس بالرغبة فى البكاء فقد كانت صورة البنت التى أحبها ، فى بلدنا . .

وكان بالمظروف أشياء أخرى كثيرة ، كانت تنبثق أمام عيونى واحدة واحدة ، فأعرفها . . وهم يعبثون بكل الأشياء ، ويلقون بكل ما ليس يعنيهم فى وجهى . .

وفى الحقيقة . . . لقد إختلط على الأمر ، ونسيت عما يبحثون ! . .

كان بالبطاقة بضعة طوابع بريد ، وورقة من فئة العشرة قروش . . وقد إحتفظن بها . . أما باقى الأشياء ، فقد طوحن بها فى وجهى وأنا أقف فى جمود . .

وإمتلأت رأسى بالأوراق المتناثرة حتى كدت أختنق . . أحسسته أنها تمنع عن عنى الهواء ! . .

ورأيت منديلى يطير . . ورسالة بلا مظروف ، تلقيتها من أبى . . لست أدرى متى . .

ولم تجد النساء النقود . . وبدأ الغيظ يطفو على وجوههن . . وأخذت المرأة التى كانت تدلكنى ، قلمى الحبر ، ثم دسته فى صدرها ثم أنحنى الرجل على الأرض ، وتناول صورة حبيبتى وقبلها ، ثم دسها فى جيبه . .

وقد فعلوا ذلك دون أن يعنوا ، حتى بالنظر إلى ... كأنما وجودى قد تلاشى بالنسبة لهم !

* * *

غيمت رأسى فجأة.. وغشيتنى فترة من ظلام تلاحقت خلالها أنفاسى ولم أعد أستطيع الرؤية ، مثل قطع يأتى فجأة فى شريط سينمائى . . ثم عادت الصور بغتة إلى الظهور من جديد . .

ووجدتنى بين ذراعى المرأة ذات الأيدى الناعمة ، تدلكنى . . وكنت عاريا .. وكانت المرأة الأخرى تربت على كتفى ، والفتاة واقفة تتفرج .

كانوا يقولون لى فى همس مبحوح :

ـــ ستعود ثانيا . . أليس كذلك . . ستعود دائماً . . سننظف تلك الغرفة . . وستشعر فى المرة القادمة كأنك فى بيتك .. تأكد من هذا .. ستحس بالراحه معنا ، ولن نجعلك تحتاج إلى شىء ! .

كان صوتهن ناعما . . ينغرس فى أذنى كأبرة طويلة مصقولة . . وكنت أومىء لهن برأسى فى موافقة ، وأنا بلا إراده . . .

***

ألبسونى ملابسى ، قطعة ، قطعة ، وهم يتحسسون أجزاء جسمى فى جشع كنت أحسه . . والبنت أيضاً كانت تتحسس جسمى بأصابعها الرقيقة الصغيرة .. وقد شعرت بأن لحمى يتقلص لوقع يدها الرفيعة عليه

وضاقت أنفاسى ، واحتبست فى صدرى ورقبتى . . وتمنيت لو أستطيع الخلاص . .

وقالت المرأة الثانية لى :

ـــ ستعود مرة أخرى .. أليس كذلك ؟ ..

وأجبتها فى سرعة :

ـــ نعم . . نعم ســـأعود . . فقط أريد أن أمضى الآن . . فابتسمت فى وجهى وربتت على كتفى فى رقة شديدة ، وهى تقودنى إلى الباب .. بينما كانت تخفى ساعة يدى فى صدرها ..

وقد رأيتها وهى تضع الساعة بين نهديها .. لكننى لاحظت أنى قد تجاهلت ذلك . . . وقد دهشت من نفسى جداً حينذاك ! ..

وما كاد الباب يفتح ، حتى انطلقت على الدرج الخشبى الذى يقرقع وأنا ألهث . . وفى الطريق أيضاً ظللت أعدو وأنا أنظر ورائى . . لم أكن أصدق أننى قد تخلصت منهم ..

وطوال الوقت كنت أشعر بالغربة والوحشة والخوف .. وكان الطريق الذى أعدو فيه غريبا . . لم أكن أعرفه . . والبيت من الخارج نسيت أن أنظر إلى شكله .. وكان كل شىء فى ذلك الحى مجهولا بالنسبة لى وغير واضح المعالم ..

والمطر كان يسقط بغزارة .ويتدفق فوق جسمى الذى يرق خلاله.

وكان الظلام تمزقه انبثاقات البرق .. والطريق بلا بداية أو نهاية .. كنت أعدو فى رعب ممزق ، وأنفاسى تتقطع . . والخوف يقتلع قلبي ويهبط به إلى أسفل أقدامى التى تطوى حفر شارع المجهول!.

* * *

وجدتنى فجأة فى ميدان صغير .. أعرفه جيداً .. فوقفت ألتقط أنفاسى وقد أضاء الفرح قلبى ..

ومضيت أرقب الناس فى الميدان بشغف .. كانوا جميعا فى ثياب العمل التى يبدون بها دواما فى ساعات العودة فى آخر النهار .. وكانت المصابيح فى الدكاكين على جوانب الميدان تلمع .. و« وهيبة » تقلى أقراص الطعمية . وتناولها للكثيرين الذين يمدون أيديهم فى لهفة بالنقود

ورأيت رجلا أعرفه .. نظر ناحيتى ثم مضى .. ناديته فلم يلتفت

إلى .. فتملكنى إحساس بالضيق ..

وانحدرت فى الشارع الملتوى.. المليئة أرضه بعصاصة القصب وورق الخس والسريس والبرسيم .. وقد وقفت فى وسطه عربات الأجرة القديمة ..

ونظرت ناحية «الكيكى» بائع المرطبات .. لم أكن أشعر بالعطش كما أن الجو كان بارداً .. لكننى اندفعت نحوه فى سرعة ، وطلبت كوباً من الخروب .. !

ومضيت فى الشارع الرفيع أتجشأ فى راحة عريضة ، وقد شاع فى جسمى الاطمئنان .. كان فى داخلى إحساس عذب بأن هذا الشارع سيؤدى بى فى النهاية إلى مكان أحبه ..

وكان الناس يسيرون حولى هادئين .. وادعين .. فشعرت برغبة شديدة فى الحديث معهم .. كانت وجوههم مألوفة لدى ...

***

كان خوفى قد تبدد تماما ..

أخذت أدير عينى فى جوانب الطريق والشوق يكاد يقفز من قلبى ..

كل هذه الأمكنة أعرفها .. الأشياء جميعها ليست غريبة على ..

هذا السمكرى القصير ، قد أصلح لنا حنفية فى البيت فى وقت ما.

وذلك المكوجى فى دكانه الأبيض بجوار بائع « الدندرمة » أذكر أن إسمه عثمان ، وأن أبى قد أرسلنى إليه مرة منذ مدة بعيدة ، لسبب تلاشى من ذاكرتى الآن . . .

حتى الماسورة الكبيرة فى منتصف الطريق .. والماء يسيل حولها فى الحفرة الكبيرة ، لم تكن جديدة على . . كانت مرتسمة فى ذهنى منذ زمان مرتبطة بذلك الشارع كلما ذكرته !

ووجدتني وأنا أسير في خفة ، أمام مفرق ثلاثة طرق .. فوقفت أتأمل الطرق الثلاثة في عمق ، كأنما أستعيد تاريخها في ذاكرتي .. لكن الحقيقة أن كل ما يتصل بها راح ينبثق في رأسي فجأة بلا مقدمات ..

فالشارع إلى اليمين يؤدى إلى الترعة في آخر البلد . . وباب الحرس .. والكازينو الذى طالما قضيت ليالى فيه ..

وقفز في صدري فرح غامر أنعشني عندما ذكرت أن في ذلك الشارع نفسه تقيم الفتاة التي أحبها . إلى اليمين وأنا ذاهب الى الكازينو ..

وراودتني الرغبة في السير من هناك .. إلا أن شيئا خفيا كان يشدني إلى الشارع الذى في الوسط ..

شيء في دمي ، دفعني إلى الأمام .. !

وبدأت أسير ، وحنين جارف يقود خطواتى .. شعرت أن بإمكاني إغلاق عيني ، دون أن يحيد بي ذلك عن الهدف الذى أسير إليه .

وأخذت أتطلع إلى المقهى الصغير الضيق .. والزقاق على اليمين .. ودكانة ماسح الأحذيه « عم سيد » على اليسار .. وأبو حلاوة الجزمجي .. والخرابة المحاطة بالسور الخشبي المتهدم .. وموقف العربات .. وحسن المكوجي ..

ووقفت طويلا أنظر الى حسن ، وقد تدافع أمام ذاكرتي تاريخ طويل مليء بالأحداث . .

كنا نلعب معا ونحن صغار .. عسكر وحرمية ، وبطل وحبيبته والعصابة ، والنحل والبلي والطرة .. ألعاب صغيرة محدودة ، ولكنها كانت تسعدنا ..

ورحت أنا المدرسة وعرفت علوما كثيرة .. وسافرت إلى بلاد مختلفة ، بنقود وبغير نقود .. واشتغلت ، وبقيت شهوراً من غير شغل .. اشتغلت كثيرا .. نجارا ، ورساما ، ومدرسا ، وكاتبا ، ونقاشا ، وبائع خردوات .. وظل هو يسافر حتى فتح هذا المحل الصغير ..

وخيل لى أن بسمة عميقة حلقت فى وجهى وأنا أذكر هذا التاريخ .. وكان حسن يقوم بعمله ، يمرر المكواة على فستان أزرق .. شعرت نحوه بألفة مبهمة !

ورأيتنى أحاول الاقتراب منه فى رغبة .. كنت أريد أن أعانقه .. أن أعانق فيه الماضى كله ، لكنى سمعت ورائى فتاتين تتحدثان .. ولم يكن الصوت غريبا على، فنظرت خلفى .. كانت إحداهما البنت التى أحبها .. سمعتها تقول لصاحبتها :

لقد سافر حبيبى منذ وقت طويل ، قال لى أنه ذاهب ليصنع مستقبلنا .. إنى حزينة لغيابه .. وقلبى ينفطر من الشوق .. آه ..

قالت هذا ومسحت من عينيها شيئا بمنديلها الرقيق ، فردت عليها صاحبتها فى همس :

ـــ لابد أنه يفكر فيك كثيرا .. وعندما يعود سوف يتزوجك . !

ورأيت حبيبتى تبتسم وهى تسمع ذلك ، ثم أومأت لصاحبتها وهى تدلف إلى الشارع المعتم المؤدى لبيتهم !

وشعرت كأنى أذوب من الخجل .. فى الحقيقة أنى لم أكن أفكر فى حبيبتى بمثل هذا المقدار ! .

ووجدتني أندفع فجأة وراءها لألحق بها .. لكن قدمي تعثرت بشيء فوقفت في بلادة أحملق فيه . . .

* * *

مضى وقت طويل .. أخذت أعصر خواطري لأعرف كنه ذلك الشيء الذي جذب إنتباهي وعاقني عن متابعة حبيبتي .. ثم تبين لي أنه إعلان كبير ملون ، لفيلم أجنبي ، ملقى على سطح رقعة داكنة من مياه المطر ، في إحدى حفرات الطريق .. ورأيت وجهي يطل من خلال الماء ، فبدا غريبا بالنسبة لي !

تملكني الخوف لحظة ..

فأخذت طريقي في سرعة إلى جانب الشارع ، ثم انحدرت إلى اليسار وما كدت أخطو بضع خطوات في الشارع الجديد ، حتى لاح لي بيتنا والنور يلمع في نوافذه . .

* * *

ووجدتني فجأة بين إخوتي الصغار وقد أخذوا يحتضنون ساقي بشغف ويتسلقون أكتافي .. وأمي ترقبني في فرح عميق .. وأبي يراقب أمي في فرحها وهو يبتسم في غبطة .. وإخوتي الكبار يتشاغلن بالقراءة حتى لا يظهر ضعفهن حين يبدين فرحهن بعودتي .. !

وشعرت أننا جميعا قد غلفتنا طمأنينة هانئة ، حين ضمنا البيت الصغير معا .. وسمعت في جو المكان طنينا وهمسا .. وحديثا مشوشا وقبلات .. وسرى في جوانحي خـــدر لذيذ وأنا أسمع لهم يقولون : لن تسافر ثانيا .. ستبقى معنا يا أخانا العزيز .. سننظف لك غرفتك منذ الصباح .. ونعيد ترتيب كتبك .. ولن نجعلك تحتاج لشيء .

* * *

وكانت أختى الصغيرة تلتصق بى ، وتمسك أنفى ..

لكننى فجأة .. تألمت بلا مبرر .. شعرت بأن صدرى ينقبض دون سبب ظاهر .. !

ثم إهتز كل شىء فى رأسى .. وسادنى ظلام كثيب ..

وحين نفضت رأسى بقوة ، تيقظت .. فوجدتنى بسريرى فى الغرفة الضيقة التى إستأجرتها منذ يومين .. فى البيت الغريب ..

وكانت صاحبة البيت تجلس على العتبة الخارجية مع ابنتها وأختها يثرثرن بصوتهن الحاد المسلوخ ..

كان الصداع يفتت رأسى .. وتلاحقت أنفاسى وأنا أستعيد كل ما مر بى خلال اللحظات التى تمتها ..

* * *

وقد جلست بعد ذلك طويلا فى العتمة ..

ومضيت أفكر فى حبيبتى .. وفى بيتنا .. وفى بلدتنا النائية ..

جلست أفكر فى غربتى ..

الإنسان

«إلى صديقي الذي لا يعرفني ..!»

كنت أرتجف بحبه حين يجمعنا حديث الصحاب .. لم يكن يعرفنى على حدة .. فقد كان يعرف كل الناس .. وكان يملأ قلوبهم وعيونهم .

كان يكتب والناس يقرأون .. الناس البسطاء المضيئون كانوا يقرأون له .. وبعضهم لم يكن يعرف القراءة .. لكنه كان يسمع بالإنسان النحيل ، فكان يشترى الجريدة ، ويتعد بها عند صاحب له ، ليقرأ له ما كتبه عنه .. وعن جاره بائع البطاطا .. وعن سنية المومس التى تسكن خلفهم ، وتسكر كل ليلة ، وتظل تزعجهم بشجارها حتى الصباح وعن الأعرج الذى يقفز كالجراده على جانبى الترام بقدمه الواحدة ليبيع الكبريت .. والبهلوان النحيل المعروق الذى يرقص ببطنه وأصابعه ، وعينيه وأنفه ، والعامل الذى تلتهم الآلة عرقه ودموعه ودمه ، وساعات عمره الحيوية . ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يعيش .. والفلاح الذى يزرع جسده طوال النهار فى الأرض السوداء .. ويرويها بعصير قلبه وكل قواه ، وينام فى السباخ ، ويجمع الحسرة والشوك والألم .

كان الإنسان النحيل يكتب لهم جميعا ، وكانوا كلهم يشعرون بذلك ، فيقرأون كل ما يكتبه .

كانوا يحسون أنه منهم ، يعيش حياتهم ، ويفهمها ويدرك الخيوط المعقدة التى تصنع متاعبهم .. وتنشب فى قلبه أصابع القلق الرهيبة الغليظة ، الناشبة فى قلوبهم .

وكانوا يلمسون الصدق فى كتاباته .. ويرون النور الجديد خلال



ما يسطره ، فيتنفسون ما يكتب .

ويأكلونه أكلا واعيا بعقولهم ومشاعرهم .. ثم يديرون أبصارهم في حياتهم من حولهم ، ويفكرون فيما يجب أن تكون عليه هذه الحياة .

والإنسان النحيل نفسه .. كان يدرك ذلك .. كان يدرك التعاسة التي يدورون فيها ، والضيق الذي يخنق أيامهم .. فكان يرسم لهم الأمل ويمنحهم النور .. ويأخذ بيدهم في الطريق عبر ما يكتبه . ؟

هذا الرجل الكبير كنت أحبه . وكان الناس يحبونه ، وكان هو أيضاً يحبنا أشد الحب وأكبره .. ويحب حياتنا ، ويمجدها .. ويكره أن يرى المتاعب والتعاسات تسودها وتشوهها .

وحبه لنا ، كان يدفعه دفعاً لا هوادة فيه ، ليرسم لنا حياة أخرى أكثر اطمئنانا وأعم محبة .

لكن الرجل الكبير لم يكن يعرفني . أو أنه لم يكن يعرفني المعرفة الخاصة الفردية . . كانت معرفته لي عامة . . كان يتكلم معي ، وكان يفعل ذلك أيضاً مع الكثيرين ..

* * *

في الأمسيات التي كان يجمعنا فيها الحديث ، كنت أعتمد ذقني براحة يدي ، وأسلط عيني على فمه وعينيه . . وكان هو يجلس بيننا . . مائلا برأسه ونصف جسده إلى الأمام ، وذراعاه النحيلتان تلوحان حول وجهه كأنما تنثران كلماته ، وتصفانها في آذاننا ليستقيم لنا المعنى الذي يقصده وشعراته البيض تلمع في رأسه ، وشفتاه ترتجفان ، وفي عينيه شعاع من نور أزرق عذب ، يحترق باستمرار فيضيء كل وجهه بالأمل ، ،

كان يقول ، وصوته الرزين العميق المنغم يرن فى آذاننا رنينا قدسيا مليئا بالمحبة :

— النور الدافىء . . من يكرهه ؟ .. شمس العدالة ستسطع غداً .. لم لا تسطع الآن ؟ . . إن كل شىء طيب . . مغرق فى الطيبة والبساطة لكنه مشوه . . . ؟

ويصمت برهة . . وبسمته الودودة تضىء كل الوجوه من حوله ، وكانت رؤوسنا تدور لكلماته ، وكانت قلوبنا ترتجف لها .. وكانت تتبلور فى صدورنا معانى عظيمة .. من ذا الذى يستطيع التعبير عن الخير الذى تحمله إلى القلب المردق ، كلمة وديعة حافزة ؟

* * *

حدثت أشياء كثيرة لا يمكن الحديث عنها .. وخلاصة القول .. إن الرجل الكبير ، الإنسان .. قد إختفى من بيننا فجأة .. وظللنا جميعا طوال عامين نتساءل ، وقد أحسسنا بالفراغ الذى خلفه لنا ..

وذهب كلام ، وجاء كلام .. وراحت شائعات كثيرة ترسم لنا المصير الذى إنتهى إليه الكاتب .. الإنسان .

وعرفنا جميعا .. وما إستطاع أحد منا أن يتكلم ؟ !

* * *

عامان مضيا فى الحياة .. والناس تدور بهم دوامات حياتهم كأحجار طاحون ردىء .

وفى أمسية .. كنت أعبر الطريق ..

ومن الناحية المقابلة .. أضاء النور الأحمر فى شارة المرور فتوقفت على الطريق كل العربات ..

كانت من بينها عربة نقل كبيرة .. وفى صندوقها الخشبى المكشوف ، ناس كثيرين .. وحين إقتربت ، ووقفت فى صف العربات التى أوقفتها العلامة الحمراء .. تعلقت أبصارى بالوجوه الجامدة الممصوصة ، واللحى النامية ، والعيون التى تدور بحذر فى أنوار الطريق .. وأردية السجن الزرقاء الغامقة ، الملتصقة بالأجساد التى تنضح بالعرق .. وكانت شفاه الجميع ترتجف ، وحلوقهم فاغرة .. لكن لا يصدر منها صوت .. كان عليها حاجزاً غير مرئى .. حاجزاً مخيفاً ، جعل الكلام الكثير ، والمعانى التى تجيش فى الصدور ، تحتبس فى الأفواه ..

وكانوا جميعاً يغمدون عيونهم فى مظاهر الحياة الطليقة من حولهم فى نهم ويشرئبون برقابهم ، ويمطون رؤوسهم بقدر ماتسمح لهم القيود ، ليمكنهم إستيعاب أكبر قدر ممكن من الرؤية ..

وجمدت عيونى فجأة .. وإرتجف قلبى ، حين وجدت الإنسان النحيل يجلس بينهم .. !

وعادت إلى ذهنى بسرعة ، كل التكهنات التى دارت على ألسنة الأصدقاء وهبط على قلبى غم مفاجىء .. !

الرجل الذى يصنع الحياة .. فى عربة واحدة مع أولئك الذين دفعتهم ظروفهم إلى هدمها !

ودنوت قليلا ، ورحت أحدق فى الرجل ، كانت ذراعه مربوطة بشاش كثير إلى رقبته . . وفى ذراعها الأخرى قيد . . ونظارته السميكة مشروخة الزجاج . . وكان يرتدى ملابسه العادية . . لكنها مهدلة ،

ممزقة من بعض أجزائها .. وكان يبدو في وجهه إرهاق مريع وكلال ... وفي عينيه ، من وراء نظارته ، رأيت رماداً كثيراً .. رماداً فيه معنى العذاب .. !

وبغتة وجدته يدير وجهه ناحيتي في سرعة .. ويطيل التحديق ويشرئب بعنقه من أعلى حاجز العربة الخشبي ، ورفع ذراعه المقيد فارتفع معه ذراع جاره .. ثم أصلح من وضع نظارته على عينيه .. واخذ ينظر إلى ناحيتي وقد فغرفاه .

كان من الواضح أنه عرفني .. أو أنه تذكر أنه يعرفني .. ووجدت الرماد الذي كان يملأ عينيه ينزاح .. ويلمع من خلاله ذلك الشعاع من النور الأزرق العذب ، الذي يحترق باستمرار في عينيه فيضيء كل وجهه وانتشرت ابتسامته الودودة الطيبة على شفتيه .. فوجدتني ابتسم في فرح وألوح له بيدي .

كان من الواضح أنه في وضعه هذا بحاجة إلى إنسان يعرفه .. لقد أخرجوه ، ربما ليحققوا معه ، أو يستجوبونه .. أو يأخذون شهادته .. وسوف يعيدونه ثانيا .. وربما يخرج مرة ثانية ، وربما لا .. شعرت أنه يريد أن يتحدث إلى إنسان يعرفه .. ربما ليسأله عن حال أهله .. عن حال أولاده .. ؟ ..

قرأت كل هذا في عينيه ووجدت شفتيه ترتجفان وحلقه يضطرب .. كان من الواضح أنه يعد الكلام ليرسل به من فمه ..

شعرت من كل حركات الرجل ، ونظراته والتماع البريق في عينيه أنه سوف يناديني ، فتحركت بلهفة . وأوشكت أن أقترب من العربة .. لكنه فجأة ..

أنزل يده ومات البريق فى عينيه . . وارتسم الضيق على وجهه وهو يشيح به بعيداً عنى إلى داخل العربة . ؟

ونظرت حولى بحيرة . .

لماذا عدل عن التحدث معى . . ؟

عدت ببصرى إلى العربة فوجدت العسكرى الذى يجلس بجواره يمد رأسه ويحدق فى وجهى بريبة وفضول .

نظرت الى الإنسان النحيل طويلا وأنا أبتسم . . وحاولت بالتماع عيونى أن أجعله يفهم ، أنى عرفت لماذا تجاهلنى . . وشعر هو بأنى فهمت ، فأضاءت ابتسامته الودودة كل وجهه .

وقد تكلمنا طويلا . . أنا وهو . . خلال اللحظة التى دام فيها وقوف العربات . . وتبادلنا معلومات كثيرة . . وعرفت اشياء صعبة . . أشياء رهيبة عن طريقة الحياة هناك . . وامتلأت مشاعرنا بأحاسيس كبيرة جياشة . . وغمر الأمل الدافق كل قلبينا . .

وخلال الطريق ، كنت أنظر فى وجوه الناس المرهقة من حولى . . فأكاد أشعر بأنهم جميعا . . أصدقاء وأقرباء ، وأهل ، للإنسان الذى التقيت به منذ دقائق . .

وقد اصطخب بصدرى إحساس غامر ، كان يؤكد لى ، أن من حق كل هؤلاء الناس ، أن أقول لهم إنى قابلته . . وإنه بخير . . وإنه لم ينته .. لأن الإنسان لا ينتهى .. أبداً لا ينتهى . .

الرسوم الداخلية للفنانين :

يوسف فرنسيس

حسن حاكم

صلاح جاهين

إيهاب شاكر

بهجت عثمان

اسماعيل طه

جمال كامل

زهدي

كاريكاتير الغلاف للفنان حجازي.

إهداء	٣
هذه القصص	٥
القميص	٩
تجمهر	١٩
التلميذ	٢٥
تفاح	٢٣
كنا بنضحك	٣٩
الباب	٤٦
السكلان	٥٧
الساعة	٦٦
فى الغربة	٧٣
الإنسان	٨٥

« مطابع الناشر العــربى »
٨ شارع الصحافة — القاهرة



٨ شارع الصحافة ـ القاهرة